محتويات العدد

أبحاث ودراسات

- **العربية : الاعتبار القومي والبعد الأممي**
  محمد ديداوي 7
- **اللسان العربي يحكي قصة نشأة الانسان واللسان**
  د . جعفر دك الباب 17
- **مشاكل المترجم العربي في المنظمات الدولية**
  د . علي القاسمي 37
- **الأسلوب دراسة لغوية إحصائية**
  د . مازن الوعر 45
- **حول معاني حروف المعاني**
  حسن عباس 67
- **الترادف والمشترك اللفظي**
  محمد السيد علي بلاسي 105
- **قضية الفصاحة في القاموس العربي التاريخي**
  د . عبد العلي الودغيري 119
- **اللغة والمهن : اللغة الخاصة ودورها في الاتصال بقلم هـ . فيلبر**
  ترجمة : محمد حلمي هليل / د . سعد مصلوح 135

* مع المعجم الوسيط في طبعته الثانية
إدريس بن الحسن العلمي 151
* أثر تحويل التقنية على اللغة العربية
اللجنة الوطنية السودانية 155
* توصيات مؤتمر مجمع اللغة العربية
في دورته 56 (القاهرة 89 - 1990) 159

أبحاث ودراسات بلغات أجنبية

* **The phenomenon of i'raab in standard arabic**
Dr. Zaki Abdel-Malek 5
* **The arabic language :**
Arab recognition and international perspective
Mohammed Didaoui 69
* **Specialised dictionaries in the Arab World : An overview**
Dr. A.F Abu - Ssayedah 87
* **The impact of technology transfer on the arabic language**
Translated by : Fouad Elagabany 93

العربية : الاعتبار القومي والبعد الأممي

محمد ديداوي
منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية
(اليونيدو)

خلاصة

لا شك أن العربية تتأرجح عند أبنائها بين الحب والتعلق من جانب المطلع عليها والعارف بأصولها ومن يغار على الاسلام ويسعى بالتالي إلى صون لغة القرآن الكريم، وبين المهانة من جانب من يجهلها أو يزدريها بسبب عدة عوامل، منها العامل الاجتماعي. ولقد استطاعت العربية أن تصل إلى بر الأمان رغم ما لقيته من عراقيل وما أصاب ألفاظها من ضعف تسبب فيه مريدوها أيضا، من حيث لم يحتسبوا.

ومن فضل المحفل الدولي على العربية أنه يعطيها دفعة إلى الأمام، على أنها يجب ألا تنفصم عن ماضيها التليد. وهي الآن تسعى إلى تدقيق المصطلح خدمة للمعنى والمفهوم. وما المصطلح إلا وسيلة للافهام، علما أن المعنى والمفهوم قد يكونان جديدين تماما على العربية وأن العقلية وراء النص المراد نقله غير عربية، إذ يكون مكتوبا بالانجليزية في الغالب الأعم، وهذا ما يضمن الفصل بين *اللغة والفكر* والخروج عن داء الانشغال بالألفاظ الذي طبع النص العربي ردحا من الزمن.

إن النص العربي (المترجم) في الأمم المتحدة هو عربي المبنى لكنه عجمي المعنى، وقد كان ذلك واضحا تماما في الوثائق الأولى التي صدرت بُعَيْدَ دخول العربية الأمم المتحدة وكانت وكأنها نصوص عربية مكتوبة بالانجليزية نظرا لما كان يتخللها من الحرفية الشديدة، التي ذكرت من قبل والتي كان لها ما يبررها. وإن المبنى المتماسك ملائم لروح العصر والمعنى الجديد مفيد للعرب.

كما أن حسن الاستعمال يحافظ على اللغة ويعزز التفاهم الدولي.

العربية : الاعتبار القومي والبعد الأممي

«لابد من الشعور بالنقص ولا بد من علاجه ولا بد من الثقة المستعادة عن علم أو عن بينة علمية، نعرف بها الحقيقة لننتفع بمعرفتها ولا نبتغي بها أن نسوقها مساق الفخر الذي لا سند له غير أنه يرضينا»

عباس محمود العقاد
(أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف)

جميل أن نذكر مآثر علماء العرب وفضلهم الذي لا ينكر على حضارة هذا العصر، إذا كان لهم السبق في عدة ميادين.

ورائع أن يلتفت العربي إلى لغته ويرى أن الأمة العربية هي الأمة الوحيدة التي نزلت فيها معجزة لغوية محكمة البنيان بديعة البيان متينة الأركان صامدة أمام الزمان، ألا وهي القرآن الكريم، مما يدل على عظمة هذه اللغة واتساعها للمعجزات. لكن هل انتفع العربي على مر العصور بتراثه وهل مازال العربي اليوم يحافظ على هذه اللغة وهل يرقى استعماله لها إلى أنسب الدرجات ؟

ثم أن دخول العربية الأمم المتحدة في عام 1973 كان حدثا هاما. فماذا تستفيده هذه اللغة من هذا الوضع ؟

(*) إن الآراء الواردة في هذه الورقة آراء شخصية.

1 – العربية والعقلية العربية

1 – 1 التركة العربية

إن عقلية العرب متجلية في لغتهم، كغيرهم من الأمم مع لغاتها. وفي هذا الموضوع كتب الكثير وقيل الكثير. وفي الوقت الحاضر، «تتميز العربية باستعصائها على المقارنة في لسانيات اللغات السامية نظرا لنحوها [الكامل بأتم معنى الكلمة] الذي يكاد يكون هيئة الجبر، كالشأن في الأوزان والصرف(1).

ومن ناحية أخرى، فإنه إذا كانت الفلسفة هي «معجزة» اليونان فإن علوم العربية هي «معجزة» العرب(2). وقد انتشرت العربية من المحيط الأطلسي حتى حدود الصين. كما أنها كانت «اللغة العالمية الأولى منذ القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي، وكانت جامعاتها الكبرى قبلة طلاب الثقافة العالمية في أنحاء الأرض»(3).

«وإن جل ما كتب في العربية هو كتابات علماء ... وهناك ترجمات جليلة وهامة من الناحية التاريخية قام بها علماء في القرون الوسطى من اليونانية إلى العربية؛ ومؤلفات تاريخية ذات طابع عام وخاص؛ وتشكيلة من المؤلفات المستوحاة من الدين؛ وكتب في النحو والأسلوبيات والآداب والفلسفة.»(4)

ومن فرط غيرة العرب والمسلمين على اللغة العربية لغة القرآن الكريم والحديث والشريعة الاسلامية ، هبوا للدفاع عنها وصونها من كل شائبة أو مكروه ، لا سيما وقد بدأ اللسان العربي يخالطه التحريف الأعجمي وتعتوره لكنة غريبة عنه ويتزعزع بنيانه وتركيبه بعد أن امتدت رقعة الامبراطورية الاسلامية في مشارق الأرض ومغاربها والتقى العربي بالعجمي .

وقد أفضى ذلك إلى الحفاظ على العربية فأبقى على رونقها وروعتها وخلد ذكرها على مر العصور والدهور ، وإن أصابها شيء من السقم في عصور الانحطاط ، لا لعيب فيها وإنما لتقصير عند أهلها ولتواطؤ عند من يناوؤونها لشتى الأسباب . وقد امتدح العربية مستشرقون منهم لويس ماسينيون ويوهان فك وأربري ووليم مرسيه وميليه وريجستير بلاشير وبروكلمان وجورج سارطون – وغوستاف غرونيباوم وأرنست رينان وجورج بوست وفان ديك وفيلا سبازا(5).

و «كان النحاة [العرب] أيضا على يقين من أن إلمامهم الكبير ببنية النحو العربي كان له أهمية قصوى في الحفاظ على جمال الأدب [العربي] الذي يعتز به العرب وغير العرب»(6)

ولعبت العربية دورا في تحرير البلدان العربية من الاستعمار لاقترانها بالاسلام وبالهوية الوطنية .

وقد عرفت الأمة العربية علماء يعدون من العمالقة نبغوا في شتى فروع المعرفة معا وجمعوا بين حسنات كثيرة، فأضافوا إلى المعارف المنقولة عن اليونان أساسا ، ونشط بيت الحكمة الذي أسسه المأمون فأثرى التراث العربي وطعمه. إلا أن هؤلاء العلماء، وإن كانوا يقومون بتجارب منعزلة للوقوف على خفايا الأمور واستنباط النتائج ، فقد ظلت ممارسة العلم عندهم «تجري على الهامش بدون ضجة وبصورة فردية ومتقطعة»(7) «وظل العلم العربي، علم الخوارزمي والبيروني وابن الهيثم وابن النفيس وغيرهم، خارج مسرح الحركة في الثقافة العربية فلم يشارك في تغذية العقل العربي ولا في تجديد قوالبه وفحص قبلياته ومسبقاته، فبقي الزمن الثقافي العربي هو هو ممتدا على بساط واحد من عصر التدوين إلى عصر ابن خلدون، وركد هذا الزمن وتخشبت موجاته منذ عصر ابن خلدون إلى «النهضة» العربية الحديثة التي لم تتحقق بعد»(8).

وكان هذا على عكس الثورة الصناعية

والتكنولوجية التي شهدها ويشهدها الغرب والتي شملت كل مناحي الحياة وداهمت بيوت الناس، فالعالم جزء لا يتجزأ من المجتمع يعيش عصره ومع عصره، يؤثر على غيره ويتأثر بهم.

ويمكن القول أن غير العرب قد استفادوا من علماء العرب أكثر مما فعله العرب. فهؤلاء العلماء كانوا يزاولون نشاطا فكريا وعلميا حبا في العلم ولوجه المعرفة، لالتسخيره لخدمة المجتمع آنئذ ورقيه، إلا قليلا. وكانوا بذلك بعيدين عن الواقع.

ومن الأندلس، خصوصا، عبرت هذه العلوم إلى الغرب، فنقلوها ودرسوها واستغلوها.

وفي المقابل، ازدهرت علوم اللغة والكلام والمنطق عند العرب، وعمت المجتمع تيارات لغوية هدفها النهائي تفسير القرآن الكريم والتأويل أو التشيع لمذهب. وقد وضعت مصنفات ذات شأن في اللغة والعلوم المرتبطة بها وظهر علماء كبار مثل الغزالي وابن حزم وابن رشد وابن طفيل والفارابي وأبو بشر متى بن يونس وابن السراج والجاحظ وابن وهب والقاضي عبد الجبار وابن جني وابن فارس وابن هلال العسكري وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي وأبو عبيدة والفراء ، وغيرهم كثير .

واهتم العرب بالبيان وبالدلالة وأنواع تركيبها وبالفصاحة ومناهجها والبلاغة وأسبابها وضروبها. وانشغل الفقهاء ورجال الدين باللغة مثلما انهمكوا في أمور الدين، خدمة لهذه الأمور. ولقد ميزوا بين أنواع الخطاب، وبين التبين والفهم والتلقي والتبيين والافهام والتبليغ. وكان في كلامهم دقة وإمعان. واهتموا بالخطاب وصنفوه إلى صنفين «أحدهما يتصل بنفس الخطاب وموضوعه» [منظومة الخطاب] و«الآخر بما يدل عليه من الأحكام العقلية والسمعية» [معقول الخطاب][6].

وفيما يلي طائفة من أقوالهم تدل على مدى هذا الاهتمام ومدى الدقة والامعان :

«اعلم أن الفصاحة لا تظهر في أفراد الكلام وإنما تظهر في الكلام بالضم على طريقة مخصوصة، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة»
(القاضي عبد الجبار)

وإن «الكلام يرجع في نهاية التحليل إما إلى إخبار المتكلم السامع عن شيء وإما إلى طلب شيء منه : الخبر والطلب».
(أبو يعقوب السكاكي في مفتاح العلوم)

و «أما علم البيان فهو معرفة إيراد المعني الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه وبالنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتمام المراد منه»
(أبو يعقوب السكاكي في مفتاح العلوم)

و «إن مدار الأمر على البيان والتبين وعلى الافهام والتفهم. وكلما كان اللسان أبين كان أحمد، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة كان أحمد، والمفهم لك والمتفهم عنك شريكان في الفضل، إلا أن المفهم أفضل من المتفهم وكذلك المعلم والمتعلم»
(الجاحظ، البيان والتبيين)

ويحتاج البيان إلى «تمييز وسياسة وإلى ترتيب ورياضة» و «إلى تمام الآلة وأحكام الصنعة»
(أبو عثمان الجاحظ)

و «لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضهم ببعض ويبني بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك»
(عبد القاهر الجرجاني، دلائل الاعجاز)

نرى إذن أن بعضهم ممن اهتم باللغة لم يفهم ما للفهم والافهام من أهمية وأن الكلام لا بد أن يكون موزونا ذا معنى.

لكن شدة الولوع بالنص قد جعلت النص محورا للتفكير العربي. ومما «يثير الاستغراب حقا أن لا يصادف المرء بين تلك الأبحاث والمناقشات الواسعة المتشعبة التي تزخر بها كتب اللغة والفقه والكلام والبلاغة حول أصل اللغات والمفاضلة بين اللفظ والمعنى وتحديد العلاقة بين نظام الخطاب ونظام العقل إلخ .. أي اهتمام بعلاقة اللغة بالفكر، هكذا بصورة أشمل وأعم، ولا أي اهتمام بدور اللغة في عملية التفكير. والسبب في هذا واضح أن غياب الاهتمام بعلاقة اللغة بالفكر راجع هنا إلى غياب الاهتمام بعملية التفكير ذاتها مستقلة عن الألفاظ واللغة. فلم يكن البيانيون، على اختلاف نزعاتهم وتنوع اختصاصاتهم، يشغلهم السؤال : كيف نفكر؟ إن السؤال الذي كان يملك عليهم كل حقل تفكيرهم هو : «كيف البيان؟»»[10].

لهذا، فإن «العقل العربي قد تكوَّن، أساسا من خلال التعامل مع النص (في التفسير واللغة والكلام)»[11]

لذا، «فتكوين العقل البياني إنما يتم عبر حفظ النص والنظر في النص وبالتالي فاهتمامه سيتركز أساسا على «نظام الخطاب» وليس على نظام العقل.»[12]

ومن المؤسف أنه لم «يكن في إمكان العقل البياني أن يتقدم أكثر مما فعل ... إن الانجاز العظيم الذي حققه في مجال اللغة والفقه لم يكن فقط عبارة عن قوانين للغة والتشريع يجب التقيد بها، بل كان أيضا عبارة عن قيود للعقل .. عن تأطير له، أعني تثبيت آليات نشاطه في إطار معين لا يجوز اختراقه. وعندما اكتمل البناء في اللغة والتشريع و لم يعد هناك مجال للمزيد اكتمل البناء أيضا في مجال التشريع للمشرع فأصبح العقل البياني العربي سجين هذا البناء الذي طوق نفسه، فلم يكن من الركود مناص ولا من «التقليد» مفر»[13].

وبعد أن انقضى عصر التدوين ووضعت المصنفات الكبرى، بدأ الاجترار وكانت «النتيجة ظهور أنواع من تراكيب الكلام لا تحمل أي معنى، ولكنها تقرأ وتسمع على أن لها معنى. وتلك هي السمة البارزة في أدبيات عصر الانحطاط في الثقافة العربية، العصر الذي بدأ مباشرة بعد السكاكي والذي اتجه فيه الاهتمام إلى المحسنات اللفظية في الثقافة العربية»[14].

ففي حين أن النحو العربي محكم التركيب ومقرون بالمنطق ومتفاعل معه، وفي الوقت الذي تزخر فيه العربية بالمفردات التي تتبع نسقا محكما ودقيقا للتعبير عن المدلولات، يلاحظ أن العرب توغلوا في متاهات النص وأغرموا بالألفاظ إلى أن أصبح اللفظ هو المبتغى وهو المراد.

وقد ساعد على ذلك أن العربية لغة موسيقية حتى «إن النغمة الموسيقية في اللغة العربية تعوض، أو تُغطي فقر المعنى، وتجعل الكلام الذي يجر معه فائضا من الألفاظ ذا معنى حتى ولو لم يكن له معنى. إن الأذن هنا تنوب عن العقل في الرفض والقبول»[15].

إلا أنه «كما يعطل السجع، وبكيفية عامة الانشغال بنظام الخطاب، الرقابة العقلية لدى المستمع يعطلها كذلك لدى المتكلم. فعندما ينشغل المتكلم بإلباس كلامه ما يستطيع من المحسنات اللفظية يكون ذهنه مسرحا لنوعين من التداعي : تداعي الألفاظ وتداعي المعاني»[16].

وهذه بالذات، الحالة التي تتخبط فيها خطب العرب ومراسلاتهم اليوم، على العموم.

ولقد كانت التقاليد صارمة إلى حد أن القارىء لا تصله سوى لمحات قليلة من أحاسيس الشاعر. وبالفعل، فإن تلك الأحاسيس كان يغربلها العقل، وكانت التجارب الشخصية تحول إلى نوع من

الزخرفة العربية المتكلفة. هكذا، أصبح الأدب [العربي] على يد بعض النظّام والكتّاب العاديين متصنعا تماما»[17].

1 - 2 القديم والجديد : صراع متجدد

القديم هو الجديد في وقت من الأوقات وكل جديد مصيره إلى القدم. لكن، كلما هم أحد بالاتيان بشيء غريب عن المألوف وأي جديد اصطدم بمن يخشى على قدميه. ولا بد من التجديد للتطور، شريطة أن يكون في الجديد تحسين وتحسن.

وبالنسبة للغة العربية ظل «الذهن العربي مشدودا، إلى اليوم، إلى ذلك العالم الحسي اللاتاريخي الذي شيده عصر التدوين اعتمادا على أدنى درجات الحضارة العربية عبر التاريخ، حضارة البدو الرحل التي اتخذت كأصل ففرضت على العقل العربي طريقة معينة في الحكم على الأشياء، قوامها : الحكم على الجديد بما يراه القديم»[18].

وقد نودي بالاعتماد على الشعر الجاهلي حتى لتفسير القرآن بحكيم آياته وجليل معانيه. قال الطبري :

«إذا تعاجم شيء من القرآن، فانظروا في الشعر ، فإن الشعر عربي»[19].

وقال ابن عباس :

«إذا سألتموني عن غريب القرآن، فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب»[20].

ولقد شغل العرب بالقرآن الكريم، وعنوا بتفسيره وحياطته، وكان أساسا لكثير من علوم العربية»[21].

وحاول بعض الشعراء، مثل بشار بن برد وأبي نواس وأبي تمام، أن يخرجوا عن قاعدة الأقدمين فانبرى لهم النقاد، مثل ابن طباطبا وابن فارس، وهاجموهم أشد ما يكون الهجوم. لكن، بعض علماء العرب تشككوا في عصمة القدماء من الخطأ، ومن هؤلاء العلماء الجرجاني[22] والآمدي وابن قتيبة[23] الذي يقول :

«... ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا إلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره، بل نظرت بعين العدل على الفريقين، وأعطيت كلا حظه، ووفرت عليه حقه».

واشتدت الخصومة بين أنصار القديم ودعاة الجديد وفيما بين الشعراء. وكانت تلك الخصومة «شخصية بعيدة عن الأسباب الفنية أذكتها عوامل لا علاقة لها بالتقاليد الأدبية»[24] أو كانت مذهبية و «كانت سببا في كثير مما وصل إلينا من النقد اللغوي»[25]

و «لقد وقر في نفوس المتقدمين من النقاد بوجه خاص أن العربية لغة استغرقت حظها من النضج، وبلغت أعلى مراتب الكمال، فلم يبق من واجب على أهلها والمتكلمين بها إلا حمايتها والدفاع عنها وتخليصها من كل ما يندس فيها أو يطرأ عليها.»[26]

وبهذا يحكمون على العربية بأن تكون لغة قديمة إذ لا تتجدد.

1 - 3 العربية والعرب اليوم

1 - 3 - 1 القديم والجديد من جديد

في العصر الحديث، ظهر مفكرون عرب بعضهم رأى التجديد في استعمال العاميات في الكتابة والقراءة وطائفة ثارت على القديم، ومنهم طه حسين الذي دعا إلى تطوير النحو وارتأى أن «اللغة ملك لنا ولا حق لرجال الدين أن يفرضوا وصايتهم عليها»[27].

وأحمد أمين الذي كان مذهبه «أن اللغة ملك لنا ولسنا ملكا للغة»، في حين أن غيرهما يرى أن اللغة العربية لا تقبل «إصلاح قواعدها بالازالة والوضع فيها، أو الوضع فقط، لأن هذا التغيير يخرجها عن لغة القرآن والحديث والأدب العربي والعقلية العربية الدينية والفلسفية والعالمية»[28].

ومن الذين دعوا إلى «التجديد» ومن الذين يسميهم أنور الجندي «أعداء العربية»[29] : لطفي السيد (1913) و قاسم أمين (1912) والخوري مارون غصن (1926) وعبد العزيز فهمي (1944) والزهاوي (1910) وسلامة موسى (1926) وسعيد عقل (1961) وأنيس فريحة/ وأمين الخولي (1955) ولويس عوض (1947).

ومن المفرح حقا أن الفصحى نجت من براثن العامية، وأصبح المثقفون العرب يميلون إلى تفصيح هذه الأخيرة في كلامهم اليومي ومعاملاتهم ولقاءاتهم. وقد دخلت الفصحى البيوت أيضا بواسطة الاذاعة والتلفزة. ولا يمكن أن ينكر أن اللغة العربية قد قفزت قفزة كبيرة في أيامنا هذه انطلاقا من القرن التاسع عشر، إلا أن الوضع ما زال غير مثالي. وفيما يلي بعض وسائل العلاج المقترحة.

(أ) جودة الكتابة : من الضروري اتخاذ قرارات رسمية تقضي بتوخي الجودة في المراسلات والكتابات في البلدان العربية على غرار بعض البلدان، مثل فرنسا، حرصا على اللغة والسهر على تنفيذ تلك القرارات.

(ب) تعدد السلطات اللغوية : الملاحظ أن السلطات اللغوية في العالم العربي متعددة وأنها غير قادرة على مواجهة الوضع نظرا لضآلة ميزانياتها وشح إمكاناتها. من الضروري إذن زيادة قدرة مكتب تنسيق التعريب التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وأن يشتد عضد مجامع اللغة العربية.

(ج) الانبهار بالثقافات غير العربية : هذا الاعجاب يعود إلى شتى الأسباب منها مخلفات الاستعمار والمنزلة الاجتماعية ولا عيب فيه إن لم يصاحبه حطّ من شأن العربية وتراثها، علما أن «الثقافة العربية في مجملها تراث هائل ومجهول وأرض مفقودة»[30] و «هل العربية من الآن لغة الماضي؟ كلا ثم كلا. إن العربية ستصبح عملية، وهي كذلك بالفعل في كثير من القطاعات»[31]. لقد آن الأوان أن ينظر العربي نظرة فاحصة إلى الوراء وعليه أن يعتز بلغته. ولا ضير أن يتعلم لغات أخرى ليتفتح على حضارات وعقليات أخرى.

(د) مستوى التعليم : من الضروري رفع مستوى التعليم وزيادة تعريبه لتكون العربية لغة الاستعمال والتداول، لا سيما في مستوى الجامعي، إذ أن مرحلة البحث العلمي تستلزم الدقة والمنهجية العلمية السليمة.

(ه) النحو وتعليم العربية لغير العرب : ينبغي إعادة تبويب النحو العربي وتيسير تلقينه وكذلك تشجيع الأجانب على تعلم العربية بالوسائل السمعية – البصرية المتطورة[32].

(و) أزمة المصطلح : من اللازم زيادة التنسيق وإصدار قاموس جامع يميز بدقة بين ركام المترادفات التي أصبحت عالة على اللغة العربية كجزء من التركة اللفظية التي سبق الكلام عنها.

(ز) الصحافة العربية : يمكن أن تلعب الصحافة دورا هاما، لا سيما في تفصيح العامية أو، بمعنى آخر تبسيط الفصحى لجمهور الناس والمثقفين.

2 البعد الدولي

2 - 1 دخول العربية الأمم المتحدة

2 - 1 - 1 الفصل بين اللغة والفكر

دخلت اللغة العربية، لغة الأدب المرموق ولغة المساجلات اللفظية، الأمم المتحدة في ظرف زمني كان مواتيا لدخولها. وكان الاحتكاك اليومي باللغات الخمس الرسمية الأخرى، وهي الاسبانية والانجليزية والروسية والصينية والفرنسية. ويتميز الوضع في الأمم المتحدة بالآتي :

(أ) المواضيع *علمية ومتخصصة* وكثيرة التنوع ومن اللازم توخي الدقة العلمية.

(ب) المفاهيم جديدة في معظمها، إذ أن الاجتماعات تناقش قضايا الساعة.
ولا بد من مفردات جديدة للتعبير عن المدلولات الجديدة.

(ج) كانت الحرفية الشديدة تطبع وثائق الأمم المتحدة في بداية الأمر، وهذا مرده إلى ضرورة التخلص من الفوضى اللفظية التي اعتدت اللغة في عصور الانحطاط ولتحديد الفوارق تدريجيا، علما أن «من اللازم الآن أن يتسنى للمنظمة، إذ تعددت المواضيع التي يتم تناولها، أن تعطي لكل مدلول لفظا يدل عليه بالضبط»[33]، وهذا بالنسبة لكل اللغات الرسمية. ولقد ذهب البعض إلى «أن استعمال العربية في الجمعية العامة سوف يحد من تأثير العرب، ذلك أن البيانات التي يدلى بها بالانجليزية أو الفرنسية سوف تكون أنجع من الخطب التي تلقى بالعربية، والتي يضطر معظم الوفود إلى تتبعها عن طريق الترجمة الفورية»[34]. وهذا غير صحيح من ناحية ، ذلك أن هناك ترجمة فورية من الانجليزية والفرنسية أيضا، وليس فقط من العربية، وكثير من الوفود لاتجمع بين الانجليزية والفرنسية. ومن ناحية أخرى، هناك نقطتان : نوعية الخطاب العربي ونوعية الترجمة الفورية من العربية وهما مترابطتان ترابطا كبيرا. وإذا كان لا بد من أن يكون الترجمان (أي المترجم الفوري، وجمعه تراجمة) متمكنا من مهنته، فإن الخطاب هو المحور الأساسي والمنطلق. ومن المعلوم أن الترجمة الفورية ترتكز أساسا على المعنى والفحوى، فإذا كان الخطاب «لا يحمل أي معنى ولكنه يقرأ ويسمع على أنه له معنى» ، فإن نقله سيستعصي على الترجمان حتما، لأنه ستلهيه الألفاظ. بيد أن الوثائق التي تصدر بالعربية عن الأمم المتحدة تقيم الدليل على أن هذه اللغة قادرة على مسايرة اللغات الأخرى في كل الميادين، نظرا للخصائص التي تمتاز بها. ولئن دخلت العربية، في فترة ما، في متاهات لفظية، فإن اقترانها بالقرآن الكريم قد صان بنيانها وأوصلها إلينا مكتملة الأركان، رغم العيوب المذكورة آنفا.

نرى إذن أن المعنى في اجتماعات ومؤتمرات الأمم المتحدة هو الجوهر، من مواضيع اجتماعية مثل منع الجريمة ومكافحة المخدرات ومساعدة المعوقين والشيخوخة والنهوض بالمرأة، ومواضيع علمية مثل الطاقة الجديدة والمتجددة واستعمال الطاقة النووية في الأغراض السلمية، ومواضيع قانونية متخصصة في مجال القانون الدولي والقانون التجاري الدولي، إلخ.

ومع ذلك، فإن كثيرا من المناقشات العربية تدور حول الألفاظ في مؤتمرات ذات مواضيع هامة.

وإن المترجم العربي في الأمم المتحدة مبلغ للأفكار، فإذا اكتفى بالترجمة الحرفية الركيكة المجردة من المعنى فإنه يكون قد قصر. وكثيرا ما يضع الخبراء التقارير في غير لغاتهم، أحيانا في أسلوب غث، دون الاكتراث كثيرا بالنص. ومع ذلك، فلا بد أن يهتم المترجم العربي بالنص الذي يجب أن يكون مفهوما وسلسا ودقيقا في تأدية المعنى المقصود.

لذا، فإن من خاصيات الأمم المتحدة، عموما، ولا سيما في الأمور العلمية المتخصصة، *الفصل بين النص والتفكير*، أو اللغة والفكر، وإن كانت بعض الخطب في ميادين غير علمية تأخذ طابع «الاجترار» والتكرار في اللغات الست.

وفي الأمم المتحدة، لا سيما عند المترجم العربي، نوع من التحرر من العقل العربي لأن وراء النص المراد نقله تفكيرا غير عربي. وهذا من حسناتها على اللغة.

الحواشي

(1) Bernard Coorie, Major World's Languages, Croom Helm, London, 1987

(2) محمد عابد الجابري، تكوين العقل العربي، نقد العقل العربي، المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1987.

(3) علي عبد العظيم (عن عالمية اللغة العربية) مجلة الأزهر سنة 1392/1391 . عن أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، الموسوعة الاسلامية العربية، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(4) The New Encyclopaedia Britannica, Macropaedia, Islamic Literatures, Vol. 9 P. 954, 1984.

(5) أنظر أنور الجندي، المرجع السابق الذكر، للمزيد من التفاصيل.

(6) Encyclopaedia Britannica، المرجع السابق الذكر.

(7) م.ع. الجابري، تكوين العقل العربي، المرجع السابق الذكر.

(8) المرجع نفسه.

(9) القاضي عبد الجبار، عن م.ع. الجابري، المرجع السابق الذكر.

(10) محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، نقد العقل العربي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، 1987.

(11) المرجع نفسه.

(12) المرجع نفسه.

(13) المرجع نفسه.

(14) المرجع نفسه.

(15) الجابري، تكوين العقل العربي، المرجع السابق الذكر.

(16) الجابري، بنية العقل العربي، المرجع السابق الذكر.

(17) The New Encyclopaedia Britannica ، المرجع السابق الذكر.

(18) الجابري، تكوين العقل العربي، المرجع السابق الذكر.

(19) محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آية القرآن عن «النقد الأدبي عند العرب».
(20) جلال الدين السيوطي، الاتقان في علوم القرآن.
(21) نعمة رحيم العزاوي، النقد اللغوي عند العرب، منشورات وزارة الثقافة والفنون، بغداد، 1978.
الجرجاني (الوساطة بين المتنبي وخصومه، القاضي بن عبد العزيز الجرجاني)
(22) الآمدي، الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي.
(23) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، الشعر والشعراء.
(24) نعمة رحيم العزاوي، المرجع السابق الذكر.
(25) المرجع نفسه.
(26) المرجع نفسه
(27) طه حسين، مستقبل الثقافة، عن أنور الجندي، المرجع السابق الذكر.
(28) علي العناني، مجلة النهضة الفكرية، 1933، عن أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، دار الكتاب اللبناني، بيروت.
(29) أنور الجندي، الفصحى لغة القرآن، المرجع السابق الذكر.
(30) Gilbert Grandguillaume. Arabisation, Maisonneuve et Larose. Collection Islam d'hier et d'aujourd'hui, Paris, 1983.
(31) المرجع نفسه.
(32) انظر أيضا توصيات ندوة مونص حول تشجيع العربية في بلدان الاتحاد الاقتصادي الأوروبي، 8 — 9 تشرين الأول / أكتوبر 1987.
(33) Françoise Cestac, la traduction et les services de conférences à l'Organisation des Nations Unies.
(34) Mala Tabory, Multilingualism in International Law and Institutions, sijthoff and Noordhoff, Rockville, Maryland, U.S.A.

اللسان العربي يحكي قصة نشأة الانسان و اللسان.

الدكتور جعفر دك الباب

أولا ــ خصائص بنية العربية تدل على أصالة اللسان العربي .

1 . 0 . حين نصف لسانا ما بالأصالة نقصد أنه يتوافر فيه عنصران هما : الايغال في القدم من ناحية ، والاستمرار في الحياة من ناحية أخرى . وعليه فإن بنية اللسان الأصيل بهذا المعنى يجب أن تتمتع بجملة خصائص من حيث المفردات والأصوات والصرف والنحو تشير إلى إيغاله في القدم . ***وأول قرينة على إيغال لسان ما في القدم هي وجود شبه بين ألفاظه وأصوات الحيوان والطبيعة*** ، لأن هذا الشبه يدل على محاكاة الانسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة . ويؤكد بالتالي بدائية نشأة ذلك اللسان .

1 . 1 . ومن خلال استعراضنا ***لخصائص النظام اللغوي للعربية*** توصلنا إلى النتائج التالية :

(1) ــإن الخاصة المميزة للبنية الصوتية العربية (التي تتجلى في المبدأ التالي : لاوجود بشكل منفصل للصوت الصائت ــ القصير أو غير القصير أي الحركات والمدات ــ عن صوت صامت يلفظ قبله ويتصل به) تعكس طور محاكاة الانسان القديم لأصوات الحيوان والطبيعة [1] ، وتؤكد بالتالي بدائية نشأة اللسان العربي .

(2) ــانعكست الخاصة المميزة للبنية الصوتية للعربية في الكتابة العربية وتجلت في أنها ليست مقطعية كما أنها ليست أبجدية تماما[2] .

(3) ــانعكست الخاصة المميزة للبنية الصوتية للعربية في طريقة تحديد أصل الكلمات في العربية . وظهر ذلك في تمتع البنية الصوتية لمعجم مفردات العربية بخاصة مميزةتجلت في أن أصل المفردات في المعجم العربي يتحدد على أساس الأصوات الصوامت التي يشتمل عليها فقط[3] . وبدا يطرح المعجم العربي سؤالا حول وجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول نتيجة لمحاكاة أصوات الحيوان والطبيعة .

ونستنتج من ذلك كله أن اللسان العربي لسان أصيل بدائي النشأة .

(*) قدم هذا البحث في المحاضرة التي ألقاها المؤلف في مكتبة الأسد الوطنية بدمشق يوم 05 أيلول (سبتمبر) 1988 وعنوانها : *نحو نظرة جديدة إلى فقه اللغة (اللغة العربية أصل قائم بذاته)* .

1 . 2 . كتب ***الأستاذ زكي الأرسوزي*** عن منشأ اللسان العربي مايلي :

«اللسان العربي اشتقاقي البنيان ، ترجع كافة كلماته إلى صور صوتية ــ مرئية مقتبسة مباشرة عن الطبيعة .

ا ــعن الطبيعة الخارجية تقليدا للأصوات الحاصلة فيها مثال ذلك :

(قرّ) (فقّ) (خرّ) (زمّ) .

ب ــأو عن الطبيعة الانسانية بيانا لمشاعرها ، مثال ذلك :

(أنّ) (أهّ)»[4]

«وأما اللغة العربية فهي ذات طابع بدائي ترجع كلماتها جميعا إلى أصوات الطبيعة ... وفضلا عن أن اللسان العربي بدائي النشأة ، فإن كلمات هذا اللسان يبدأ تكوينها عفويا من انبثاق المعنى دون طائلة العقل . هذه الحقيقة تدل عليها أمور مختلفة ، منها أن أصوات الهيجان الطبيعية التي كانت مصدر اشتقاق لمعظم كلماتنا تشير إلى العلاقة بين اللغة الطبيعية واللغة المصطلح عليها كرموز عند الجماعة ، ونحن نستخلص من ذلك أن معاني الكلمات العربية تمثل تجربة الحياة تمثيلا مستقلا عن اجتهاد المجتهدين . فما للذهن إلا أن يستحضرها حتى ينبعث من النفس المعنى الذي أنشأها»[5] .

وعن خصائص اللغة العربية كتب الأستاذ زكي الأرسوزي : «إنه لمن الثابت بحكم التاريخ أن اللغات الافرنسية والايطالية والاسبانية قد حصلت من تحول اللغة اللاتينية ، وكان ذلك بتأثير عوامل سياسية اجتماعية . وإنه لمن الثابت بحكم التاريخ أيضا أن اللغة الافرنسية هي لهجة منطقة باريس ، المنطقة التي طبعت مقاطعات فرنسا الأخرى بطابعها السياسي والثقافي فجعلت لهجاتها تتراجع أمامها فتندثر .

وإنه على هذه الدراسة قد قام الزعم بأن العلاقة بين اللسان العربي واللغات السامية الأخرى علاقة أخوة ترجع بأصولها إلى للغة الأم التي هي لغة سامية بائدة ، وإن ثمة لهجات عربية تقلصت أمام طغيان لهجة قريش ، لهجة الديانة والسياسة ...

إن الكلمات العربية ذات أصول في الطبيعة ، وإن مبدأ الصحة فيها قد تعين من قبل الفطرة لا من قبل العرف والعادة . ثمة خطأ شائع بين اللغويين وهو أن العلاقة بين المعنى واللفظة في اللسان العربي على مثال العلاقة بينهما في اللغات الحديثة ــ علاقة اصطلاحية . بمعنى أن اللفظة تشير إلى معناها إشارة فقط . بيد أن اللسان العربي ذو بنيان عضوي تنم فيه الكلمة عن المعنى وتوحي به إيحاء حتى أن اتجاه المعنى هو اتجاه المتغلب على اللفظة مما يجعل صاحبه أكثر استعدادا من غيره لفهم الأخلاق والديانة . إنما هو منظومة صوتية تعبر عن وجهة الأمة التي أنشأته ودلت عليه[6] .

1 . 3 . أوجد ***الأستاذ عبد الحق فاضل*** في كتابه «مغامرات لغوية (ملكة اللغات)»[7] فرعا جديدا في علم اللسان سماه (الترسيس) ويميز الأستاذ فاضل دراسة أصول الكلمات أو التأثيل Etymology عن الترسيس . فالترسيس هو إعادة اللفظة إلى جدتها الأولى في صورتها التي نطق بها الانسان الأول (البدائي) تقليدا لأحد الأصوات المسموعة مثل محاكاة أصوات الطبيعة أو الحيوانات ، مع تعقب المراحل التطورية التي قطعتها تلك اللفظة حتى وصلت إلى الصورة التي نعرفها في إحدى اللغات أما التأثيل (أي دراسة أصول الكلمات) فهو رد الكلمة إلى أمها المباشرة أو جدتها المباشرة أو القريبة .

وكان الأستاذ فاضل قد ذكر أمثلة عن الترسيس في مقالته بعنوان : «آثار حيوانية في اللغة العربية[8]» .

يرى الأستاذ فاضل «أن اللغة العربية مازالت تحتفظ بالألفاظ البدائية ـــ الرسية ـــ الأولى إلى جانب الألفاظ الراقية الحضارية المتفرعة منها . فهي لذلك تمكننا من إقامة علم (نشأة اللغة) على أركان وطيدة بالطريقة الترسيسية . وهي وحدها تمدنا بمادة (علم الترسيس) . بينما جميع بناتها الساميات والحاميات والآريات وغيرها من لغات بني آدم لا تكفي إلا للتأثيل[9]» .

كما يرى الأستاذ فاضل أنه «لما كان الترسيس هو الأساس الذي سيقوم عليه علم (نشأة اللغة) وما يتصل به من علوم اللغة ، وبما أن الترسيس سيهدم كذلك بعض النظريات اللغوية وتطوراتها وتفرعاتها وهجراتها ستكون الأساس المكين لعلم (فقه اللغة) العالمي العام الذي سيعاد النظر فيه بجملته ومختلف فروعه ويعاد تخطيطه وتشييد صرحه على تصميم جديد من قوانين اللغة العربية وإيحاءاتها . وسيتضح كم سيرتقي (علم اللغة) ويصحح الكثير من أخطائه ويقضي على الكثير من تلكئه هنا وتردده هناك . وبأي سرعة ، حالما يأخذون بسلوك الطريق الاستقرائي العلمي الصحيح في دراسته ابتداء من اللغة العربية[10]» .

وكتب الأستاذ عبد الحق فاضل مقالة بعنوان : «حول (المغامرات اللغوية)»[11]، جاء فيها «المعروف أن اللغات البدائية هي التي يقرب الشبه بين ألفاظها والأصوات الطبيعية التي نشأت منها . أما اللغات الراقية فقد ذهبت أصواتها وبقيت الكلمات الحضارية الراقية التي تولدت منها ، لا سيما وأن الأمم المتحضرة قد تنقلت منذ أقدم العصور من مكان إلى مكان واختلطت لغاتها بغيرها . ولكن العربية وحدها تقدم لنا أرقى الكمات الحضارية والثقافية مع الحلقات المتسلسلة التي تقودنا إلى البدايات الأولى . وسبب ذلك هو الظروف الفريدة التي تلابس الجزيرة العربية ، فقد بقي وسطها الرملي المجدب محافظا على حياة البداوة والبدائية على حين راحت أطرافها المتحضرة تصنع من تلك الخامة اللغوية مفردات حضارية باذخة ، وإذ بهذه العربية تغذو لغة الراعي والفيلسوف في وقت واحد» .

وأشار الأستاذ فاضل في تلك المقالة إلى أن العلماء قرروا أن اللغة البشرية تكونت من أصول خمسة بوجه العموم نجدها كلها صريحة واضحة في العربية ، على حين أن أية لغة حية أخرى لا توجد فيها إلا بعض هذه الأصول إن وجدت . والواقع أنهم إنما توصلوا إلى هذه الأصول الخمسة من استقراء عدد غير قليل من اللغات البدائية التي لا تزال تحتفظ بجذورها الصوتية لعدم ارتقائها وابتعادها عن صورة ولادتها . وهذه الأصول الخمسة هي :

1 - محاكاة أصوات الطبيعة : وكمثل نذكر صوت الماء (شلشل) ومنه ترشرش الماء ، ثم رش ورشاش ، ثم رذ ورذاذ ، ثم رذر وذرى ومذارة وذرة ...

2 - تقليد أصوات الحيوانات : ونذكر من الأسماء التي سميت بأصواتها : البلبل واللقلق والجدجد والصرصر .

3 - تقليد الأصوات المصطنعة : أي الأصوات التي يحدثها الانسان في بعض أعماله ، مثل صوت القطع (قط) و (وضج) و (طق) .

4 - تقليد الانسان لنفسه : في الأصوات الطبيعية التي تصدر عنه تلقائيا في مختلف حالاته ، مثل (قهقه) و (قاء) و (أنّ) و (عطس) .

5 - تقليد أصوات الطفل : (لغ لغ)و (بابا) و (تاتا) و (دادا) . إننا نرى أن الأستاذ عبد الحق فاضل بنى نظريته القائلة بأن اللغة العربية (ملكة اللغات) بعد دراسة صوتية مقارنة للفظ كلمات مفردة في عديد من اللغات بالطريقة

الترسيسية . وقد سمى كتابه (مغامرات لغوية) لأن النظرية التي يقترحها تحتاج من أجل تدعيمها إلى الكشف عن حقائق في اللغة العربية نفسها تؤكد أنها اللغة الانسانية الأولى ، وتبين نشأتها ومراحل اكتمال نظامها اللغوي . دفعتنا آراء الأستاذ عبد الحق فاضل (الجريئة) – ولا نقول (المغامرة) – إلى طرح السؤال التالي : ***هل ترتبط بدائية نشأة اللسان العربي ببداية تشكل الكلام الانساني؟*** للاجابة عن هذا السؤال لابد من ***دراسة نشأة الألسن دراسة موضوعية ، انطلاقا من دراسة الأصوات اللغوية وباعتماد منهج تاريخي علمي .***

ثانيا : السامية والساميون – العرب والعربية .

2 . 0 . صنف العلماء بنتيجة الدراسات المقارنة التاريخية اللغات حسب منشئها إلى أسر لغوية معروفة ، ثم قسموا الأسر إلى مجموعات وفصائل وشعب ، ولكن ما يلفت الانتباه أنه تم تمييز أسرة سميت «اللغات السامية» وأسرة أخرى سميت «اللغات الحامية» ويدمج بعض العلماء الأسرتين في أسرة واحدة يسمونها «اللغات السامية – الحامية» . وقد استخدمت تسمية «السامية» و «الحامية» استنادا إلى شجرة أنساب الأمم الواردة في التوراة والتي ترجع أنساب البشر إلى أبناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث / سفر التكوين ، الاصحاح العاشر / . واعتبرت اللغة العربية فرعا من أسرة اللغات السامية . وكان العالم الألماني شلوتسر أول من استخدم تسمية «السامية» في بحث له عن الأمم القديمة عام 1781 . وقال أن معظم الشعوب والأمم التي تكلمت وتتكلم هذه اللغات هي من أولاد سام بن نوح .

وتجدر الاشارة إلى أن العماء الذين صنفوا اللغات في أسر بحسب قرابتها لم يستطيعوا أن يثبتوا تاريخيا وجود اللغة الأصل أو الأم لكل أسرة ، كما أنهم لم يتمكنوا من إثبات وجود الشعب الذي تكلم بها ، بل اكتفوا بافتراض وجود اللغة الأصل ووصف صفاتها العامة المستنبطة من التشابه بين اللغات التي تدخل في كل أسرة لغوية .
فمن خلال تحديد التشابه بين اللغات التي صنفت ضمن أسرة اللغات الهندية الأوربية مثلا ، افترض وجود لغة هندية أوربية أصل أو أم لجميع تلك اللغات . وكذا الحال بالنسبة للغات التي تدخل في الأسرة السامية – الحامية أو في بقية الأسر اللغوية .

يذكر الدكتور فيليب حتي أن «لفظة سامي مأخوذة من سام الوارد ذكره في التوراة . ولقد دخلت إلى اللغات الأوربية عن طريق الترجمة اللاتينية المتداولة للتوراة . إن التفسير التقليدي المألوف الذي يذهب إلى أن الساميين قد تحدروا من كبير أبناء نوح لا تؤيده الأبحاث العلمية الحديثة . فمن هم الساميون إذن؟»(12) .

ويبين الدكتور حتي معنى لفظة / سامي / في الغرب بقوله : «ولقد أصبحت لفظة / سامي / في أوربا وأمريكا ذات مدلول يهودي قبل كل شيء ولعل مصدر ذلك هو كثرة انتشار اليهود في هاتين القارتين» .(13)

وحول موطن الجنس السامي – الحامي يقول الدكتور حتي : «وهذا يجعل إفريقية الموطن المرجح للجنس السامي الحامي والجزيرة العربية المهد للشعب السامي والمركز الذي تفرعوا منه ، أما الهلال الخصيب فهو مرتع الحضارة السامية»(14) .

أما الدكتور جواد علي فيشير إلى أن السامية ليست عرقا ويقول : «السامية ليست رسا بالمعنى المفهوم من الرس عند علماء الأحياء ، أي جنس له

خصائص جسمية وملامح خاصة تميزه عن الأجناس البشرية الأخرى . فبين الساميين تمايز وتباين في الملامح وفي العلامات الفارقة يجعل إطلاق / الرس / عليهم بالمعنى العلمي الحديث المفهوم من / علم الأجناس / ، أو الفروع العلمية الأخرى نوعا من الاسراف واللغو ، كما أننا نرى تباينا في داخل الشعب الواحد من هذه الشعوب السامية في الملامح والمظاهر الجسمية(15)» .

ظلت الآراء مضطربة ومختلفة حول الأصل المشترك للغات السامية ، ولم يعرف العلم الكلمة الأخيرة في ذلك . فبينما تعتبر اللغة العربية آخر لغة سامية على الاطلاق ظهرت كتابيا لا يمكن الاستغناء عنها لدى كل دراسة لغوية مقارنة . بلى هي الأساس الأول والأخير لتحديد خصائص اللغة السامية الأم التي يفترض وجودها نظريا . فما السبب ياترى؟ وهل يعني ذلك أن اللغة العربية من أقدم ما يسمى باللغات السامية على الاطلاق؟

2 . 2 . يقول الدكتور فيليب حتي : «لفظة العرب من ناحية الاشتقاق سامية معناها (البادية) أو (ساكن البادية) وهي لا تعين قومية صاحبها . وهذا هو المعنى الذي أدته في العبرانية . وفي القرآن الأعراب هم البدو . وفي سفر المكابيين الثاني جاءت كلمة (العرب) بمعنى (البدو) . وأول نص صريح لمعنى هذه اللفظة في التوراة إنما هو في / ارميا 25 : 24 / (ملوك العرب) . وغالب الظن أن (الملوك) المشار إليهم هم مشايخ الشمال وبادية الشام . وما أقبل القرن الثالث قبل الميلاد حتى صار هذا اللفظ يطلق على ساكن الجزيرة كائنا من كان ... (16)» .

ويقول الدكتور جواد علي : «وترى علماء العرب حيارى في تعيين أول من نطق بالعربية . فبينما يذهبون إلى أن (يعرب) كان أول من أعرب لسانه وتكلم بهذا اللسان العربي ثم يقولون : ولذلك عرف هذا اللسان باللسان العربي ، تراهم يجعلون العربية لسان أهل الجنة ولسان آدم ، أي أنهم يرجعون عهده إلى مبدأ الخليقة ، وقد كانت الخليقة قبل خلق (يعرب) بالطبع بزمان طويل . ثم تراهم يقولون : أول من تكلم بالعربية ونسي لسان أبيه إسماعيل . ألهم إسماعيل هذا اللسان العربي إلهاما ، وكان أول من فتق لسانه بالعربية المبينة وهو ابن أربع عشرة سنة ، وإسماعيل هو جد العرب المستعربة على حد قولهم ... »(17) .

ويتابع الدكتور جواد علي فيقول : «وخلاصة ما تقدم أن لفظة (ع ر ب) هي بمعنى التبدي والاعرابية في كل اللغات السامية ، ولم تكن تفهم إلا بهذا المعنى في أقدم النصوص التاريخية التي وصلت إلينا وهي النصوص الآشورية . وقد عنت بها البدو عامة مهما كان سيدهم أو رئيسهم . وبهذا المعنى استعملت عند غيرهم . ولما توسعت مدارك الأعاجم وزاد اتصالهم واحتكاكهم بالعرب وبجزيرة العرب توسعوا في استعمال اللفظة حتى صارت تشمل أكثر العرب على اعتبار أنهم أهل بادية وأن حياتهم حياة أعراب . ومن هنا غلبت عليهم وعلى بلادهم فصارت علمية عند أولئك الأعاجم على بلاد العرب وعلى سكانها . وأطلق لذلك كتبة اللاتين على بلاد العرب لفظة ARABE ARABIA أي (العربية) بمعنى بلاد العرب(18)» .

ويقول الدكتور جواد علي : «اتفق الرواة وأهل الأخبار ، أو كادوا يتفقون ، على تقسيم العرب من حيث القدم إلى طبقات : عرب بائدة وعرب عاربة وعرب مستعربة ، أو عرب عاربة وعرب متعربة وعرب مستعربة ، أو عرب عاربة وعرباء وهم الخلص ، والمتعربة . واتفقوا ، أو كادوا يتفقون ، على تقسيم العرب من حيث النسب إلى

قسمين : قحطانية منازلهم الأولى في اليمن ، وعدنانية منازلهم الأولى في الحجاز . واتفقوا ، أو كادوا يتفقون ، على أن القحطانيين هم عرب منذ خلقهم الله وعلى هذا النحو من العربية التي نفهمها ويفقهها من يسمع هذه الكلمة . فهم الأصل والعدنانية الفرع ، منهم أخذوا العربية وبلسانهم تكلم أبناء إسماعيل بعد هجرتهم إلى الحجاز ، شرح الله صدر جدهم إسماعيل فتكلم بالعربية بعد أن كان يتكلم بلغة أبيه التي كانت الارمية أو الكلدانية أو العبرانية على بعض الأقوال»[19] .

2 . 3 . حصلت عام 1973 على درجة الدكتواره في علم اللغة المقارن التاريخي من جامعة موسكو ، وناقشت فيها رسالة عنوانها «مبادىء الدراسة المقارنة لترتيب الكلمات في اللغة العربية الفصحى واللغة الروسية الأدبية المعاصرة» . ولقد اتضحت لي بعض الحقائق الجديدة حول النظرية السامية منذ بدأت عام 1968 بإعداد رسالة الدكتوراه . ومنها ادعاء بعض المستشرقين أن صلة العربية الجنوبية بالعبرية أقوى من صلتها بالعربية الشمالية . ويرجع السبب في ذلك الادعاء إلى أن المستشرقين جميعا كانوا – حين يحللون الكتابات العربية الجنوبية (اليمنية القديمة) – يكتبونها أولا بالأحرف العبرية ثم يترجمونها إلى لغاتهم . ثم جاء الأكاديمي كراتشكوفسكي وقرر أن من الأفضل كتابتها بالأحرف العربية لأنها أكثر ملاءمة من الأحرف العبرية لخصائص البنية اللغوية للعربية الجنوبية .

وتابعت دراسة الموضوع بعد عودتي إلى الوطن ، فنشرت عام 1981 بحثا عنوانه : «السامية والساميون – العرب والعربية»[20] أكدت فيه أن تاريخ الأمة العربية ولغتها قد تعرضا لتشويه وتزييف خطيرين . فاضطررنا لدى تدريس تاريخنا إلى الاعتراف بأن العرب من الشعوب السامية . وأخذنا نتحدث عن الهجرات السامية في أول الأمر ، ثم عمدنا إلى القول بأن العرب هم الساميون ، فصرنا نقول «العرب الساميون» ونتحدث عن «الهجرات العربية السامية» . وكذا الحال بالنسبة للغة العربية . فأخذنا ندرس طلبتنا أن اللغة العربية من أسرة اللغات السامية .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار أن لفظة «سامي» – كما أشار الدكتور فيليب حتي – ذات مدلول يهودي قبل كل شيء في أوربا وأمريكا ، نكشف لنا أننا كنا طوال سنوات عديدة نتبنى ونردد حقائق زائفة ليس لها أي سند علمي ، ولا تستند إلا إلى التوراة التي تعتمد عليها الصهيونية في تأييد مزاعمها حول الحق التاريخي لليهود في فلسطين وبقية الأقطار العربية . وأصبح العرب والحالة هذه في وضع شاذ غريب لا مثيل له في التاريخ . فنحن نعترف أننا ساميون وأن لغتنا العربية من اللغات السامية . ويفهم العالم وخاصة في أوربا وأمريكا أن السامي هو اليهودي . والنتيجة المنطقية عندهم هي أن الشعب اليهودي هو الشعب الأول والأصيل في «أرض إسرائيل كما يزعمون وأن اللغة العبرية هي اللغة الأم لجميع اللغات السامية .

لذا فإننا نرفض فرضية أسرة اللغات السامية لأن الشواهد التاريخية العلمية لا تؤيدها . ولا يعني ذلك أننا نرفض الاقرار بوجود شبه كبير في أصوات اللغات التي صنفت ضمن أسرة اللغات السامية ومفرداتها وصرفها ونحوها . وإنما ينصب اعتراضنا الأساسي على وصف تلك اللغات بأنها (سامية) لأن لفظة (سامي) ذات مدلول يهودي في أوربا وأمريكا . ونرفض القول بوجود (الشعب السامي) مادام يستند فقط إلى افتراض وجود لغة ساميه ـــ أصل . وندعو إلى دراسة المادة اللغوية للعربية باستخدام منهج

تاريخي علمي متحرر من الآراء الواردة في التوراة حول نشأة اللغات البشرية .

ثالثا : الدعوة إلى دراسة المادة اللغوية للعربية باستخدام منهج تاريخي علمي .

3 . 0 . ينبع المنهج التاريخي العلمي الذي ندعو إليه في دراسة اللغات من اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية الذي بلوره ابن جني في (الخصائص) وعبد القاهر الجرجاني في (دلائل الاعجاز في علم المعاني) في نظريتين لغويتين متتامتين[21] .

3 . 1 . بعض جوانب نظرية ابن جني التي بلورها في «الخصائص» .

أ -انطلق ابن جني من منطلق وصفي لأن بحثه في «الخصائص» كان يدور بشكل رئيسي في نطاق بنية الكلمة المفردة . فعمد إلى دراسة الأصوات التي تتألف الكلمات منها وسعى إلى اكتشاف القوانين التي تنظم العلاقة بين الأصوات في الكلمة . فبحث في الاشتقاق وأنواعه ودرس التقليبات الممكنة للكلمة الواحدة . وبين أن الأمر المشترك الذي يجمع التقليبات هو وحدة المعنى وأفضى ذلك به إلى القول بوجود علاقة مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول . ويعني هذا أن ابن جني لجأ إلى الوصف التطوري لبنية الكلمة الذي يأخذ بالاعتبار عامل الزمن .

ب -اهتم ابن جني باكتشاف القوانين العامة للنظام اللغوي . لذا لم يتبن - لدى البحث في نشأة اللغات - نظرية التوقيف أو الاصطلاح ، بل جوزهما على حد سواء لأن ذلك لا يغير من حقيقة القوانين اللغوية . ولكن ابن جني أكد بشكل حازم على أمرين :

1 - لم تنشأ اللغة في وقت واحد بل نشأت في أوقات متلاحقة .

2 - كانت اللغة باستمرار تحافظ على اتساق نظامها .

ج - بحث ابن جني في القوانين الصوتية العامة التي ترجع إلى الخصائص الفزيولوجية للانسان (وعبر عنها بحس المتكلم) . كما وازن بين لغة العرب ولغة العجم .

3 . 2 . بعض جوانب نظرية الامام الجرجاني التي بلورها في «دلائل الاعجاز في علم المعاني»

أ -انطلق عبد القاهر الجرجاني من منطلق وصفي وظيفي لأنه بحث في نظم الكلم . فعمد إلى بيان ارتباط خصائص بنية الكلمة المفردة بالوظيفة التي تؤديها في الكلام ، انطلاقا من الوظيفة الأساسية للغة كوسيلة لاتصال الناس بعضهم ببعض . وكان يرى أن اللغة نظام لربط الكلمات . ولدى السعي لاكتشاف هذا النظام ، لم يكن الجرجاني بحاجة إلى وصفه وصفا تطوريا ، بل عمد إلى وصفه وصفا تزامنيا . وأدى ذلك به إلى القول باعتباطية الاشارة اللغوية .

ب -انصب اهتمام الجرجاني على اكتشاف القوانين للنظام اللغوي وأكد على ارتباط اللغة بالفكر . ولدى البحث في نشأة اللغات ، بين دور التفكير في نشأة اللغة . وجوز الجرجاني - كما فعل ابن جني - القول بأن اللغة تواضع أو إلهام . ولكنه أكد أن مهمة الكلمات المفردة لم تقتصر منذ بداية وضعها على (التسمية) فقط بل كانت

مهمتها مرتبطة أيضا ب (الاخبار) .

ج -بحث الجرجاني في القوانين اللسانية العامة .

وقرر ما يلي :

1 - لا يمكن أن تكون الكلمة المفردة أدل على معناها الذي وضعت له من كلمة أخرى ، سواء أكان ذلك في لغة واحدة أم في لغات مختلفة .

2 - الخبر معنى بين شيئين ، وليس في الدنيا خبر يعرف من غير هذا السبيل .

إنني أرى أن ***نظريتي ابن جني والجرجاني متتامتان ، بل يصح القول أنهما تؤلفان جانبين لنظرية لسانية واحدة تعبر - برأيي - عن اتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية*** . ويظهر التتام بين النظريتين جليا في الأمرين التاليين :

1 - ضرورة الربط بين الدراسة التزامنية للنظام اللغوي (التي تقدمها نظرية الجرجاني) والدراسة التطورية له (التي تقدمها نظرية ابن جني) .

2 - ضرورة الربط بين القول بأن اللغة لم تنشأ دفعة واحدة (الذي اعتمدته نظرية ابن جني) والقول بارتباط نشأة اللغة بالتفكير (الذي اعتمدته نظرية الجرجاني) ويعني ذلك أن اللغة قد نشأت وتطور نظامها واكتمل ، بشكل مواز لنشأة التفكير الانساني وتطور نظامه واكتماله .

3 . 3 . وأرى أن **الملامح العامة لاتجاه مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية** يمكن تحديدها في المبادىء التالية :

1 - الانطلاق من مفهوم منظومي للغة .

2 - اللغة ظاهرة اجتماعية ، وترتبط البنية اللغوية بوظيفة الاتصال التي تؤديها اللغة .

3 - تلازم اللغة والتفكير .

وبما أن النظام اللغوي في حركة مستمرة ، لذا يجب أن يستخدم في دراسته منهج تاريخي علمي .

3 . 4 . **ويقوم المنهج التاريخي العلمي** - الذي استنبطناه من التتام بين نظريتي ابن جني وعبد القاهر الجرجاني - على المبادىء التالية :

1 - اللغة ظاهرة اجتماعية ترتبط بالتفكير منذ نشأتها .

2 - يجب علينا - لدى دراسة النظام اللغوي - أن نهتم بما هو عام ومطرد دون أن نهمل الاستثناءات ، لأنها تعتبر شواهد على مراحل سابقة أو بدايات لتطور جديد .

3 -يؤلف النظام اللغوي كلا واحد ، توجد المستويات المتدرجة للبنى اللغوية فيه في علاقة تأثير متبادل فيما بينها . ويحتل مستوى البنية الصوتية مرتبة المستوى الأساسي والموجه بالنسبة لبقية المستويات ، لذا تنعكس خصائصه في المستويات اللغوية الأعلى . ولا يمكن تفسير خصائص المستوى الصوتي بحقائق من المستويات الأعلى ، في حين أن العكس ممكن .

3 . 5 . **تستهدف دعوتنا إلى استخدام منهج تاريخي علمي في دراسة المادة اللغوية للعربية اكتشاف التاريخ الحقيقي للغة العربية وبالتالي التاريخ الحقيقي للأمة العربية .**

ونبدأ في تنفيذ هذه الدعوة ***بالاجابة عن السؤال*** الذي طرحناه في الفقرة الأولى :

هل ترتبط بدائية نشأة اللسان العربي ببداية تشكل الكلام الانساني؟

إنه ليصعب نظريا تصور استمرار وجود لغة حقيقية حتى الوقت الراهن ، تحمل مادتها عناصر تتوافر فيها الصفات الموضوعية للأصل الأول في نشأة الكلام الانساني ، ويمكن أن تكون نموذجا لبداية تشكل الكلام الانساني . إلا أنه لا يوجد برأينا ما يحرم من حيث المبدأ دراسة مادة لغوية للغة حقيقية من أجل بيان هل تقدم مادتها العناصر التي تتوافر فيها الصفات الموضوعية للأصل الأول في نشأة الكلام الانساني .

وبما أن المعاجم العربية هي التي حفظت لنا المادة اللغوية للعربية منذ النشأة الأولى للعربية وحتى يومنا الراهن ، يتوجب البحث في الأصل في المعجم العربي والأصل في الاشتقاق في العربية استنادا إلى المنهج التاريخي العلمي .

رابعا : الأصل في المعجم العربي والأصل في الاشتقاق في العربية

4 . 0 . قرر علماء العربية ***أن المبدأ الذي يقوم عليه نظام المعجم العربي هو الأصل المجرد من حروف الزيادة*** . ويتحدد وفق قواعد الاشتقاق الصغير (في علم الصرف) كيف يتم الحصول على الأصل المجرد من حروف الزيادة . ***فهل يعني ذلك أنهم قرروا أن الأصل في المعجم هو الأصل في الاشتقاق؟***

يوجد اتجاهان في تحديد العلاقة بين الأصل في المعجم العربي والأصل في الاشتقاق في العربية :

الأول : اتجاه علماء البصرة : يقول بتمايز الأصل في المعجم عن أصل الاشتقاق في العربية فبالنسبة لأصل المعجم العربي ، يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأصل في المعجم مادة مجردة (الحروف الثلاثية الأصلية) يتم الحصول عليها بالاستنباط الصرفي وليس الأصل صيغة لغوية حقيقية . ***وبالنسبة لأصل الاشتقاق في العربية*** ، يرون أن أصل الاشتقاق هو المصدر وهو الصيغة اللغوية الأولى التي يتولد منها النظام اللغوي .

الثاني : اتجاه علماء الكوفة والمستشرقين وعلماء الساميات : يقول بعدم تمايز الأصل في المعجم عن أصل الاشتقاق في العربية . ***فبالنسبة لأصل المعجم العربي*** ، يرى أصحاب هذا الاتجاه أن الأصل صيغة لغوية حقيقية هي صيغة الفعل الماضي المجردة المسندة للشخص الثالث المفرد المذكر . ***وبالنسبة لأصل الاشتقاق في العربية*** ، يرون أنه الأصل المعجمي نفسه .

وكنا نتبنى الاتجاه الثاني .

4 . 1 . كتب الدكتور تمام حسان في كتابه «اللغة العربية – معناها ومبناها»[22] ما يلي :

((ومعنى الحدث مشترك بين جميع المشتقات ، ولكن كل مشتق منها يضم إلى الحدث معنى آخر ... وأما المصدر فهو اسم الحدث فقط إذ لا يدل على معنى آخر إلى جانب الحدث . ولذلك رآه البصريون أصلا للاشتقاق حين نظروا من هذه الزاوية ، وأوردوا في تدعيم ذلك مناقشات طويلة . وأما وجهة النظر الكوفية فقد نظرت إلى المشكلة من ناحية التجرد والزيادة . فالمجرد من بين هذه الصيغ هو في فهم أصحاب هذه النظرة أقرب إلى الأصالة من المزيد . وقد نظروا في صيغ الكلام فلم يجدوا أكثر تجردا من الفعل الماضي الثلاثي المجرد المسند إلى المفرد الغائب نحو (ضرب) فقالوا إن أصل المشتقات هو الفعل الماضي ، وأورد هؤلاء أيضا في تدعيم نظرتهم مناقشات ضافية)) .

ويعقب الدكتور تمام حسان على الرأيين فيقول : والواقع أن الصعوبات تقوم فعلا دون الاقتناع برأي البصريين أو برأي الكوفيين على حد سواء . فأما للرد على البصريين فأنا أسألهم عن

(كان) الناقصة (وهي عندهم فعل) ألها مصدر أم لا مصدر لها؟ إن مذهبهم يقول إن كان الناقصة لا مصدر لها ومع ذلك يعتبرونها مشتقة ، فما أصل اشتقاقها؟ وأما للرد على الكوفيين فإن (يدع) و (يذر) في رأيهم لا ماضي لهما وهما مشتقان على رغم ذلك ، فما أصل اشتقاقهما إذا؟

ثم يقدم الدكتور تمام حسان رأيا ثالثا في الاشتقاق فيقول :
والذي أراه أجدى على دراسة هذه المشكلة (مشكلة الاشتقاق) أن يعدل الصرفيون بها عن طريقهم إلى طريقة المعجميين بل أن يجعلوا دراستها في دراسة علم الصرف حسبة لوجه علم المعجم : مبتعدين بها عن شكلية الصيغ أو الزوائد والملحقات ذات المعاني الوظيفية جانحين بها في اتجاه المعجم بحيث يكون (الاشتقاق) حدودا مشتركة بين المنهجين . وإذا صح لنا أن نوجد رابطة بين الكلمات فينبغي لنا ألا نجعل واحدة منها أصلا للأخرى ، وإنما نعود إلى صنيع المعجميين بالربط بين الكلمات بأصول المادة فنجعل هذا الربط بالأصول الثلاثية أساس منهجنا في دراسة الاشتقاق . وبذلك نعتبر الأصول الثلاث أصل الاشتقاق فالمصدر مشتق منها والفعل الماضي مشتق منها كذلك .

4 . 2 . بالاستناد إلى المنهج التاريخي العلمي في دراسة اللغات ، ***نرى أن اللغة الانسانية كانت منذ نشأتها الأولى عبارة عن أصوات نطقها الانسان بشكل واع لاستخدامها وسيلة لابلاغ الآخرين أغراضه وفهم أغراضهم في عيشه المشترك معهم من ناحية ، ولاستخدامها من ناحية أخرى وسيلة يصوغ بوساطتها أفكاره ويعبر عن مشاعره . وتحدد الأمور المشتركة بين البشر جميعا الصفات العامة للغات الانسانية*** . وتتمثل تلك الأمور المشتركة فيما يلي :

1 - البنية التشريحية الواحدة لجهاز النطق الانساني .
2 - الطرائق العامة الواحدة للتفكير الانساني .
3 - النزوع الانساني الواعي للحياة الاجتماعية .
وتتلخص هذه الأمور المشتركة في العبارة القديمة التي عرفت ***الانسان*** بأنه كائن ***ناطق مفكر اجتماعي*** .
ومن استعراض التاريخ الحضاري للانسانية يظهر أن التفكير الانساني لم ينشأ مكتملا طفرة واحدة وأن خط السير العام لتطور التفكير الانساني انطلق من إدراك المشخص المحدد (بحاستي السمع والبصر) واكتمل بالانتقال إلى المجرد العام . وقد تطورت البنية اللغوية واكتملت تدريجيا بشكل مواز لتطور التفكير الانساني واكتماله .

وبنتيجة التعمق في دراسة المادة اللغوية للعربية باستخدام المنهج التاريخي العلمي ، تأكد لنا تمايز الأصل في المعجم العربي عن أصل الاشتقاق في العربية . وقررنا رأيا خاصا بنا بشأن العلاقة بين الأصل في المعجم وأصل الاشتقاق اللغوي ، هو التالي :
الأصل في المعجم اللغوي الانساني رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها مفردات اللغة من ناحية أولى ، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية . والأصل في الاشتقاق في النظام اللغوي الانساني هو الصيغة اللغوية الانسانية الأولى التي ولد تطورها النظام اللغوي الانساني في جميع مستوياته .

4 . 3 . لذا نقرر أن ***الأصل في المعجم العربي (ك . ت . ب) رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها المفردات العربية من ناحية وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية*** . ويعني هذا أن ***الأصل في المعجم العربي ليس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر / كتب (هو) /*** .
ويظهر ذلك أن علماء البصرة أصابوا حين قرروا أن الأصل ليس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث

المفرد المذكر نفسها . ولكن علماء البصرة لم يصيبوا حين قرروا أن الأصل مادة أصلية ويقصدون بذلك الحروف المجردة أي صيغة افتراضية (مجردة) لأن الأصل الأول في المعجم اللغوي الانساني صيغة صوتية (مادية) ترتبط بالنشأة الصوتية للغة الانسانية . وسنفصل القول في ذلك بعد عرض رأينا في نشأة الكلام الانساني .

أما بالنسبة ***للأصل في الاشتقاق في العربية*** ، ***فنقرر أنه الصيغة اللغوية الانسانية الأولى . فما هي الصيغة اللغوية الانسانية الأولى؟*** ينقلنا ذلك إلى عرض رأينا في نشأة الكلام الانساني .

خامسا : رأينا في نشأة الكلام الانساني :

5 . 0 .بعد الرجوع إلى أبحاث معمقة حول الكلام الانساني ونشأته في اللسانيات العامة والتاريخ الحضاري الانساني والأنثروبولوجيا والفلسفة وعلم النفس وعلم الأديان المقارن ، بلورنا ***نظريتنا في نشأة الكلام الانساني*** .

ولما كانت بنية اللغة الانسانية تتألف من جانبين : صوتي (مادي) ودلالي (معنوي) ، فمن الطبيعي أن ننطلق في البحث في نشأة اللغات الانسانية من تحليل الجانب الصوتي لننفذ من خلاله إلى تحليل الجانب الدلالي . وإننا ، إذ نتمسك بالمنهج التاريخي العلمي لدى دراسة نشأة اللغة الانسانية ، نؤكد ضرورة الربط بين الدراسة التطورية لبنية اللغة الانسانية (التي تكشف – كما قال ابن جني – وجود علاقة بين مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول بنتيجة المحاكاة) وبين الدراسة التزامنية لبنية اللغة الانسانية (التي تقول – كما أكد الجرجاني – بعدم وجود مناسبة طبيعية بين الصوت والمدلول وترى أن العلاقة بينهما اعتباطية حددها التواضع) .

5 . 1 . لذا نرى إدراك العلاقة الذهنية بين الصوت وما يشير إليه كان البداية الأولى في تكوين التفكير الانساني . ويعني ذلك بالضرورة أن ***الكلام الانساني قد مر في نشأته بطور أولي كان أصل المعجم اللغوي فيه عبارة عن محاكاة لأصوات الحيوان وظواهر الطبيعة*** ، لأن تلك المحاكاة كانت بمثابة قرينة تساعد الانسان القديم في الادراك الذهني للعلاقة بين الصوت وما يشير إليه . وعقبه ***طور ثان*** انعدمت فيه محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة وظهر فيه ***أصل جديد للمعجم اللغوي كانت العلاقة فيه بين الصوت والمدلول اعتباطية تقوم على التواضع الانساني***[23] .

5 . 2 . ولذا نعلن أننا ***نرفض رأي سوسور بأن العلامة اللسانية لا تربط شيئا باسم***[24] وأنها كيان نفسي ذو وجهين : الأول – التصور أو المدلول ، والثاني – الصورة السمعية أو الدال . ***ونرى أن العلامة اللسانية كانت منذ النشأة الأولى للكلام الانساني تربط شيئا باسم*** . لقد نزع سوسور من الدال الصيغة الصوتية ، لذا اضطر إلى استخدام مصطلح (اللغة : langage) للربط بين (اللسان : langue) (والكلام : parole) . وهكذا يتحدد نطاق اللغة عند سوسور بقصرها على التداعيات القائمة في الدماغ بين معنى الكلمات وصورها السمعية ، أي في نطاق ما يسمى اللغة الداخلية . ويؤدي ذلك إلى ***الفصل بين نشأة اللغة المنطوقة وبين نشأة التفكير ، وافتراض أن نشأة التفكير أسبق من نشأة اللغة المنطوقة*** . لذا فإننا نرفض التمييز التبريري بين مصطلحي (اللسان) و (اللغة) ونرى أنهما يعبران عن شيء واحد . وعليه لا نرى فرقا بين قولنا في العصر الحديث (اللسان العربي) وقولنا (اللغة العربية) . ونقر بضرورة التمييز بين اللغة أو اللسان وبين الكلام .

5 . 3 . إن اللغة الانسانية حسب مارتينيه[25]

قابلة للتقطيع على صعيدين : الوحدات الدالة (مونيمات) على الصعيد الأول ، وبضع عشرات من الوحدات الصوتية (فونيمات) على الصعيد الثاني . والكلام الانساني وحده قابل لمثل ذلك التقطيع المزدوج . ومبدأ التقطيع المزدوج قانون أساسي من قوانين اللغة الانسانية .

صحيح أن الفونيم هو وحدة صوتية دنيا تتمتع بجملة من الصفات تميزها من وحدة صوتية دنيا أخرى في نفس النظام اللغوي . ولكنا نرى أن الفونيم وحدة صوتية افتراضية لأن التقطيع الفعلي للصيغة الصوتية للوحدة الدالة (مونيم) لا يوصلنا إلى الفونيم ، بل يوصلنا فقط إلى المقطع الصوتي (Syllable) . وعليه فإننا ***لا نوافق مارتنيه في أن مبدأ التقطيع المزدوج قانون أساسي من قوانين اللغة الانسانية . ونرى أن القانون الأساسي في جميع اللغات الانسانية هو مبدأ تقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع صوتية يتألف منها الكلام الانساني .***

ولا بد من الاشارة هنا إلى أن الدراسات الأنثروبولوجية قد أثبتت بشكل جازم أن حنجرة الانسان القديم (الذي انقرض) ما كانت تسمح له إلا ينطق أصوات مندمجة بعضها ببعض مثله في ذلك مثل سائر الحيوانات الناطقة . ويعني ذلك أن الانسان القديم لم يكن قادرا على تقطيع الأصوات التي تتألف منها اللفظة التي حاكى فيها أصوات الحيوان إلى مقاطع صوتية متميزة . ثم تطورت البنية التشريحية للحنجرة عند الانسان الحديث فتمكن من تغيير نطق تلك اللفظة بتقطيعها إلى مقاطع صوتية متميزة . فتميز حينئذ النطق الانساني (عند الانسان الحديث) عن النطق الحيواني ، وظهرت اللغة الانسانية التي تقوم على مبدأ تقطيع السلسلة الصوتية إلى مقاطع صوتية يتألف منها الكلام الانساني .

لذا فإننا نميز في الطور الأول في نشأة الكلام الانساني (الذي ظهر فيه أصل معجمي بنتيجة محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة) مرحلتين : الأولى – مرحلة محاكاة أصوات الحيوان ، والثانية – مرحلة محاكاة ظواهر الطبيعة .

أ –المرحلة الأولى : كانت مرحلة تمهيدية لنشأة الكلام الانساني . ظهر فيها الأصل المعجمي الأول الذي حاكى فيه الانسان القديم أصوات فصائل الحيوان التي تمتلك جهازا للتصويت قريبا من جهاز التصويت عنده ، لذا نطقه مثلها في مجموعة صوتية مندمجة (شحج ، نزب) .

ب –المرحلة الثانية : كانت مرحلة بداية نشأة الكلام الانساني ، بدأت بظهور الصيغة اللغوية الانسانية الأولى ، ثم ظهرت فيها أصل معجمي ثان حاكى فيه الانسان أصوات ظواهر الطبيعة .

5 . 5 . ***هل كان الأصل المعجمي الأول الذي ظهر في المرحلة الأولى من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني صيغة لغوية إنسانية؟***

كنا في مقالة «نظرة جديدة إلى المعجم العربي»[26] قد ذكرنا ما يلي : «***ما هو السبب في أن نظام المعجم العربي بني انطلاقا من الأصل ثلاثي الأصوات الصامتة؟ ولماذا يعتبر ذلك الأصل خوارزما رياضيا لاشتقاق كلمات وصيغ جديدة منه؟ ولماذا حافظ هذا الأصل الثلاثي على لحمته دون تغيير على مر القرون؟*** لاشك أن هناك سرا يرتبط بطبيعة الأصل العربي ثلاثي الأصوات الصامتة فما هو ذلك السر؟ وكيف نكشفه؟»

وبالرجوع إلى الدراسات الصوتية في علم اللغة العربية وعلم اللغة العام وعلم اللغة المقارن قررنا أن «الأصل المؤلف من ثلاثة أصوات صامتة

(شحج ، نزب) كان الانسان البدائي يلفظه في مقطع صوتي واحد لأنه يحاكي أصوات الحيوان ، فلا تتميز في الأصل أصوات منفصلة بعضها عن بعض في مقاطع صوتية منفصلة ، بل تتصل بكل صوت صامت فتحة خفيفة لتمكن فقط من النطق به» .

ولدى التعمق في دراسة المادة اللغوية للعربية ، يتضح لنا أن الأصل الأول (نزب ، شحج) لم يكن يشتمل على ما يشير إلى أقسام الكلم أو الجنس أو العدد بل كان يفيد الفعل والفاعل معا ويؤدي وظيفة إبلاغ ضيقة جدا لا تتعدى – برأينا – التنبيه الصوتي الارادي بدلا من الصيحات غير الارادية التي كان الانسان القديم يصدرها . ولكن هذا الأصل لعب على الرغم من ذلك دورا هاما في بداية تكوين التفكير الانساني تجلى في إدراك العلاقة بين الصوت والشيء الذي يسميه من ناحية ، وفي تمييز الشخص الثالث (غير المتكلم وغير المخاطب) من ناحية أخرى . كما لعب دورا هاما آخر تجلى في الاستخدام الارادي لمجموعة الأصوات المندمجة التي حاكاها الانسان منذ البداية الأولى لنشأة الكلام الانساني .

وهكذا يظهر أن هذا ***الأصل الأول كان شبيها بصيحة تنبيه إرادية . ويعني ذلك أن الأصل الأول لم يكن بداية عملية التخاطب الانساني اللساني . بل كان تمهيدا ضروريا لها*** تجلى في الانتقال من إصدار صيحات غير إرادية إلى إصدار صيحات تنبيه إرادية لا تشتمل على تمييز الفعل من الفاعل من ناحية ولا تشتمل على تمييز الجنس والعدد من ناحية أخرى . واقتصر الأصل الأول على التعبير عن تمييز الشخص الثالث الذي كان يمثل بالنسبة للانسان القديم في تلك المرحلة كل ما يتحرك ويصدر صوتا أمكن محاكاته من دون تمييز لجنسه أو عدده . لذا لم يكن هذا الأصل الأول كلمة – جملة بالمعنى اللساني لأن التخاطب الانساني اللساني لا يمكن أن يقوم إلا بعد تمييز الشخص الثاني (المخاطب) . ويعني ذلك أن ***الأصل الأول لم يكن صيغة لغوية إنسانية ، بل كان أصلا تاريخيا حيوانيا مهد لنشأة اللغات الانسانية .***

وبذل الانسان القديم قصارى جهده في السعي إلى خلخلة وحدة المجموعة الصوتية المندمجة التي تألف منها الأصل الأول ، وذلك من أجل توليد ألفاظ مقطعة تسد حاجته ا لمتزايدة في الاتصال الارادي بالآخرين . ***ونجح الانسان القديم في خلخلة وحدة المجموعة الصوتية المندمجة للأصل الأول حين قطعها فحصل منها على لفظة الطلب (الأمر) للشخص الثاني التي نطقها في مجموعتين صوتيتين*** (***شحجْ ، نزبْ***) . وكانت لفظة الأمر هذه أول كلمة جملة بالمعنى اللساني حملت معها بداية تشكل النظام الصوتي للعربية . كما حملت في الوقت نفسه بداية عملية الاتصال والتخاطب الانساني اللساني نتيجة لتمييز الشخص الثاني (المخاطب) من دون تمييز لجنسه أو عدده .

وحين نجح الانسان القديم في الحصول على لفظة الأمر للشخص الثاني (التي حملت في طياتها تمييز الشخص الثاني – المخاطب من ناحية أولى ، وغرضا ابلاغيا يزيد إيصاله للمخاطب من ناحية ثانية) ***بدأت عملية التخاطب الانساني اللساني .*** وصاحبت عملية التخاطب بداية تبلور الأصوات اللغوية الانسانية التي تجلت في التقطيع الارادي لمجموعة الأصوات المندمجة في الأصل الأول (التاريخي الحيواني) إلى مجموعتين صوتيتين متصلتين في لفظة واحدة (شحجْ ، نزبْ) .

وهكذا يظهر أن ***الأصل الأول التاريخي الحيواني*** (***شحج ، نزب***) الذي كان ينطق في مجموعة أصوات مندمجة بعضها ببعض ***كان أصلا في المعجم العربي ولم يكن أصلا حقيقيا للاشتقاق في العربية ،*** بل استخدم رصيدا للأصوات اللغوية من ناحية أولى

وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية . وقد ظهرت من تقطيعه الصيغة اللغوية الأولى للتخاطب الانساني اللساني – صيغة الأمر للشخص الثاني (شحج) . ومن تطور هذه الصيغة اللغوية الأولى تولدت اللغة الانسانية واكتملت نظاما كاملا للأصوات والدلالات في جميع المستويات : مستوى الأصوات اللغوية ومستوى البنية الدلالية للمفردات في إطار المعجم ومستوى البنية الصرفية للكلمات المفردة والبنية النحوية للتراكيب (المستوى القواعدي) . وخضع تطور صيغة الأمر للشخص الثاني الذي ولد النظام اللغوي الانساني لقانون أساسي للتطور الصوتي . وارتبط به قانون توسع اللغة في القيام بوظيفة الاتصال من ناحية وقانون توسع اللغة في القيام بالتعبير عن الأفكار من ناحية ثانية .

وبذا نكون قد حللنا لغز طبيعة الأصل السالم الثلاثي في المعجم العربي الذي حافظ على لحمته من دون تغيير على مدى القرون وكان خوارزما رياضيا لتوليد النظام اللغوي للعربية في جميع مستوياته عن طريق الصيغة اللغوية الأولى للتخاطب الانساني اللساني – صيغة الأمر للشخص الثاني – التي أخذت منه عن طريق تقطيع مجموعة الأصوات المندمجة التي كان الأصل الأول (الثلاثي السالم) يتألف منها .

5 . 6 . *هل كان الأصل المعجمي الثاني الذي ظهر في المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني صيغة لغوية إنسانية؟*

تصدر بعض ظواهر الطبيعة بنتيجة الحركة مجموعات من الأصوات المندمجة بعضا ببعض ، ولكنها تتميز عن المجموعات المندمجة التي تصدرها فصائل الحيوان التي حاكاها الانسان في المرحلة الأولى بأن مجموعات الأصوات المندمجة الطبيعية أقصر . وكان الانسان القديم في المرحلة الأولى عاجزا عن محاكاة أصوات ظواهر الطبيعة هـذه بسبب قصرها ،لأن حنجرته لم تكن تمكنه من نطق مثل تلك المجموعات المندمجة القصيرة والتوقف عن النطق بعدها مباشرة . ولكن نجاح الانسان القديم في نطق أول صيغة لغوية إنسانية (عن طريق تقطيع مجموعة الأصوات المندمجة في الأصل الأول التاريخي الحيواني إلى مجموعتين صوتيتين متصلتين في لفظة واحدة) ***كان تطورا هاما في البنية التشريحية لحنجرة الانسان القديم حمل معه بداية انقراض الانسان القديم وبداية ظهور الانسان الحديث*** ، كما حمل معه بداية عملية التخاطب الانساني اللساني وبداية مرحلة جديدة هي المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني .

وهكذا ***استطاع الانسان الحديث في هذه المرحلة الثانية محاكاة أصوات ظواهر الطبيعة التي تصدر مجموعة قصيرة من الأصوات المندمجة بعضها ببعض بأن عمد إلى تكرار نطق محاكاتها في لفظة واحدة متصلة*** ، ليتخلص بذلك من صعوبة التوقف عن النطق بعد محاكاة تلك الأصوات في المرة الأولى (خرْ ← خرْخرْ / صلْ ← صلْصلْ) ، وذلك على غرار ما فعله الانسان الحديث حين خلخل الوحدة الصوتية المندمجة للأصل الأول التاريخي الحيواني فقطعها إلى مجموعتين متصلتين في لفظة واحدة . ثم ***استطاع الانسان الحديث محاكاة أصوات فصائل أخرى من الحيوان تصدر مجموعات صوتية مندمجة قصيرة مماثلة لأصوات ظواهر الطبيعة*** (زق ← زقْ زقْ) .

ولدى التعمق في دراسة المادة اللغوية للعربية يتضح لنا أن هذا ***الأصل الثاني الطبيعي – الحيواني*** (خرْخرْ ، زقْ زقْ)– الذي ظهر في المرحلة الثانية من الطور الأول في نشأة الكلام الانساني – كان على غرار الأصل الأول الحيواني لا يشتمل على ما يشير إلى أقسام الكلم أو الجنس أو العدد ، وكان يفيد

الفعل والفاعل معا . لذا لم يكن الأصل الثاني كلمة – جملة بالمعنى اللساني ، ***أي لم يكن صيغة لغوية إنسانية ، بل كان أصلا تاريخيا طبيعيا – حيوانيا مهد للتوسع في نشأة اللغات الانسانية*** .

وهكذا يظهر أن الأصل التاريخي الطبيعي – الحيواني الذي كان ينطق في مجموعتين صوتيتين متماثلتين ومتصلتين في لفظة واحدة (خرْخرْ ، زقْ زقْ) ***لم يكن أصلا حقيقيا للاشتقاق في العربية ، بل كان أصلا في المعجم العربي*** استخدم رصيدا للأصوات اللغوية من ناحية وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية . وبذل الانسان الحديث قصارى جهده في تغيير نطق المجموعتين الصوتيتين المتماثلتين المتصلتين في لفظة واحدة هي الأصل الثاني من أجل الحصول منه على الصيغة الأولى للتخاطب الانساني اللساني – صيغة الأمر للشخص الثاني . ونجح في ذلك حين تمكن من تغيير نطق المجموعة الثانية من الأصل التاريخي الطبيعي – الحيواني لتتمايز عن نطق المجموعة الأولى (خرْخرْ ← خرْخِرْ ، زقْ زقْ ← زقْ زِقْ) .

وحدث تطور في التقطيع الصوتي حين تمكن الانسان الحديث من تغيير طريقة التكرار التي عرفها في الأصل التاريخي الطبيعي الحيواني . وتم ذلك حين نجح الانسان في عدم تكرار نطق المجموعة القصيرة من الأصوات المندمجة بعضها ببعض التي حاكى فيها أصوات ظواهر الطبيعة ، بل عمد إلى تقطيع المجموعة الصوتية القصيرة المندمجة ونطقها في مقطعين صوتيين متصلين في لفظة واحدة هي صيغة الأمر عن طريق تكرار نطق الصامت الثاني منها . وحسب نجاح الانسان في طريقة تكرار الصامت الثاني تحدد نوع التقطيع الصوتي الذي بلغه :
(خرْ ← خُرُرْ)تقطيع إلى مقطعين صوتيين قصيرين مغلقين .
(خرْ ← خُرْر)تقطيع إلى مقطعين صوتيين الأول مغلق والثاني مفتوح .

5 . 7 . أما بالنسبة ***للطور الثاني في نشأة الكلام الانساني*** (الذي ظهر فيه أصل معجمي كانت العلاقة فيه بين الصوت والمدلول اعتباطية تقوم على التواضع الانساني) ، فنقرر ***أن الأصل التواضعي كان الصيغة اللغوية الانسانية الأولى – صيغة الأمر للشخص الثاني*** . ونرى أن ***الطور الثاني مر بمرحلتين*** : المرحلة الأولى كان الأصل التواضعي فيها مؤلفا من صامتين نطقا في البداية في مقطعين صوتيين قصيرين الأول مغلق والثاني مفتوح (رُمِ ، سْمَع) . وفي نهاية المرحلة الأولى نطق الصامتان في مقطع صوتي واحد قصير مغلق (قُمْ ، نمْ) . ومهد ذلك للانتقال إلى المرحلة الثانية التي ظهر فيها أصل تواضعي مؤلف من صامت واحد ينطق في مقطع صوتي قصير مفتوح (قِ ، فِ) .

سادسا : نظرة صوتية جديدة إلى المعجم العربي .

6 . 0 . قررنا في الفقرة السابقة (خامسا) أن نشأة الكلام الانساني مرت بطورين ومر كل طور منهما بمرحلتين .

الطور الأول : كان الأصل المعجمي فيه محاكاة لأصوات الحيوانات والطبيعة .

أ – **المرحلة الأولى** : ظهر فيها أصل تاريخي حيواني مهد لنشأة اللغات الانسانية . كان هذا الأصل ينطق في مجموعة أصوات مندمجة بعضها ببعض (شحج ، نزب) . ولم يكن صيغة لغوية إنسانية ، أي أنه لم يكن أصلا للاشتقاق في النظام اللغوي الانساني .

ب -**المرحلة الثانية** : ظهر فيها أصل تاريخي طبيعي حيواني مهد للتوسع في نشأة اللغات الانسانية . كان هذا الأصل ينطق في مجموعتين صوتيتين متماثلتين ومتصلتين في لفظة واحدة (خرْخرْ ، زقزقْ) ولم يكن أصلا للاشتقاق في النظام اللغوي الانساني .

هذا وقد حصل الانسان على الصيغة اللغوية الانسانية الأولى – صيغة الأمر العامة للشخص الثاني – عن طريق تقطيع نطق الأصل التاريخي الحيواني (شحج ← شْحجْ) (نزب ← نْزبْ) وعن طريق تغيير تقطيع نطق الأصل التاريخي الطبيعي الحيواني (خرْخرْ ← خرْخِرْ ، زقْ زقْ ← زقْزِقْ) أو عن طريق تغيير طريقة التكرار المتبعة في الأصل التاريخي الطبيعي الحيواني (خرْ ← خْـرُرْ ، خرْ ← خُرْر) .

الطور الثاني : انعدمت في الأصل المعجمي محاكاة أصوات الحيوان وظواهر الطبيعة وكانت العلاقة فيه بين الصوت والمدلول اعتباطية تقوم على التواضع الانساني . وكان هذا الأصل التواضعي الصيغة اللغوية الانسانية الأولى – صيغة الأمر العامة للشخص الثاني .

أ -**المرحلة الأولى** : كان الأصل مؤلفا من صامتين ونطقا في مقطعين صوتيين (رْمِ ، سْعْ) ثم في مقطع صوتي واحد (قُمْ ، نَمْ) .

ب -**المرحلة الثانية** : كان الأصل مؤلفا من صامت واحد ونطق في مقطع صوتي واحد (قِ ، فِ) .

وهكذا يظهر أن نشأة الكلام الانساني كانت خاضعة لقانون صوتي يرتبط بقدرة الانسان على التقطيع الصوتي وتطور قدرته على التقطيع . ويعني ذلك أن نشأة الكلام الانساني لم تخضع لقوانين المنطق .

6 . 1 . وكنا في مقالة ((نظرة جديدة في تأريخ نشأة اللسان العربي))[27] قد ذكرنا أن (علماء العربية الأوائل حاولوا بعد الكشف الصحيح عن خصائص بنية العربية تقديم تفسيرات لأسباب تمتع العربية بخصائصها المميزة ، فاعتمدوا المنهج المنطقي في وصف تسلسل منطقي لنشأة النظام اللغوي للعربية وتطوره ، نجم عنه تمتع العربية بخصائصها البنيوية المميزة . ولنأخذ على سبيل المثال سيبويه[28] . يرى (أن الفعل مأخوذ من لفظ أحداث الأسماء – أي المصادر – وأن الاسم قبل الصفة كما أنه قبل الفعل ، وأن النكرة قبل المعرفة ، وأن المفرد قبل الجمع وأن المذكر قبل المؤنث) . وأكدنا أن (تاريخ تطور الأصل في اللسان العربي وتشكل النظام اللغوي للعربية واكتماله لم يخضع لقوانين المنطق بل خضع لقانون أساسي للتطور الصوتي وارتبط به قانون توسع اللغة في القيام بوظيفة الاتصال (الابلاغ) من ناحية ، وقانون توسع اللغة في القيام بوظيفة التعبير عن الأفكار من ناحية أخرى . لذا يتضح أن المنهج المنطقي عاجز عن تحديد مراحل التطور ووصفها قبل اكتمال النظام الصوتي للغة ونظامها القواعدي ونظام التعبير فيها عن الأفكار المجردة العامة . كما يتضح أن المنهج الوصفي الوظيفي عاجز أيضا عن تحديد مراحل التطور ووصفها) . وقررنا أن (المنهج التاريخي العلمي لمدرسة أبي علي الفارسي اللغوية هو المنهج القادر على تحديد مراحل التطور ووصفها) .

6 . 2 . قررنا أعلاه (في الفقرة 4 . 3 .) أن الأصل في المعجم العربي (ك . ت . ب) رصيد للأصوات التي تتألف منها مفردات العربية من ناحية وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية . وقلنا أن ذلك يعني أن الأصل في المعجم العربي ليس صيغة الفعل الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر / كتب (هو) / .

كان الأصل التاريخي الحيواني (شحج ، نزب) ينطق في مجموعة صوتية مندمجة ، ثم تطور النطق الانساني لهذا الأصل بحيث صار الانسان ينطقه فيما بعد في ثلاثة مقاطع صوتية . وبعد اكتمال النظام اللغوي للعربية الذي عكس اكتمال نظام التفكير الانساني ببلوغه المفاهيم المجردة ظهرت صيغة الاخبار للفعل العربي الخاصة بالشخص الثالث غير المشار إليه التي تميزت بأنها فارغة لا تشمل على ضمير يفيد المسند إليه الفعل . وبما أن الصيغة الفارغة (كتب 0) تتطابق مع الصيغة غير الفارغة / كتب (هو / وقع الوهم في أن صيغة الأصل في المعجم العربي (ك . ت . ب) هي صيغة الفعل الماضي المجردة المسندة إلى المفرد الغائب / كتب (هو) / .

وفي ضوء ذلك يظهر أن الأصل في المعجم العربي (ك . ت . ب) ليس صيغة فعلية فارغة (كتب 0) لأنه يحمل معنى الفعل والفاعل معا بينما تحمل الصيغة الفارغة معنى الفعل وحده من دون الفاعل . ولكن الأصل في المعجم بالمقابل ليس صيغة افتراضية مجردة بل هو صيغة صوتية (مادية) ترجع إلى الأصل التاريخي الحيواني لنشأة اللغة العربية الذي كان ينطق في مجموعة صوتية مندمجة ، ثم صار ينطق فيما بعد في ثلاثة مقاطع صوتية فأصبح يتطابق صوتيا مع صيغة الفعل الماضي المجردة للشخص الثالث المفرد المذكر .

6 . 3 . وهكذا يظهر أن نظام المعجم العربي استند إلى الأصل التاريخي الحيواني لنشأة اللغة العربية الذي صار ينطق فيما بعد في ثلاثة مقاطع صوتية ونظر إليه على أنه يتألف من ثلاثة صوامت متحركة . والسؤال الذي يبرز هنا هو التالي : ***كيف تم إدخال الأصول الذي ظهرت بعد الأصل الأول (التاريخي الحيواني) في نظام المعجم العربي مع المحافظة على اتساق نظامه؟***

للاجابة عن هذا السؤال ***طرحنا نظرة جديدة في دراسة المعجم العربي . تقوم النظرة الصوتية إلى المعجم العربي على القانون التالي : الأصل الحقيقي في المعجم العربي*** (الذي هو رصيد للأصوات اللغوية التي تتألف منها المفرادت من ناحية ، وللمدلولات التي ترتبط بها من ناحية ثانية) ***هو ذلك الرصيد الذي يشتمل على الحد الأدنى من الصوامت المشترك بين جميع الكلمات التي تدخل في العنقود الاشتقاقي الواحد وبالترتيب نفسه .***

كشفت نظرتنا الصوتية إلى المعجم العربي ***خمسة مبادىء يقوم عليها نظام المعجم العربي***[29] هي التالية :

أ ـ اعتماد مادة تتطابق مع صيغة الفعل للشخص الثالث المفرد المذكر المؤلفة من ثلاثة صوامت متحركة (كتب) أصلا في المعجم .

ب ـ اعتماد مادة تتطابق مع صيغة مفترضة تتألف من ثلاثة صوامت متحركة أصلا في المعجم (مدد) بنتيجة فك الادغام في الثنائي المضعف بالنسبة لصيغة الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر (مدَّ) .

ج ـ اعتماد مادة تتطابق مع الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر رباعية الأصوات الصامتة (بعثر) أصلا في المعجم .

د ـ اعتماد مادة تتطابق مع صيغة مفترضة ـ تتألف بنيتها من ثلاثة صوامت متحركة ـ على أنها أصل في المعجم بنتيجة رد الألف المدة في صيغة الماضي إلى أصلها الواو المتحركة أو الياء المتحركة بالنسبة لصيغة الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر .

1 – المعتل الأجوف : قام ← قوم ، باع ← بيع

2 – المعتل الناقص : رمى ← رمي ، دعا ← دعو

3 – المعتل اللفيف المقرون : طوى ← طوي

4 - المعتل اللفيف المفروق : وق ← وقي

هـ -اعتماد مادة تتطابق مع صيغة الماضي للشخص الثالث المفرد المذكر المعتل المثال (وعد) والمهموز (أكل ، سأل ، قرأ) - وتتألف بنيتها من ثلاثة صوامت متحركة - أصلا في المعجم .

وتجدر الاشارة إلى أن هذه المبادىء تؤمن اتساق نظام المعجم العربي من ناحية ، وتعتبر من ناحية أخرى سمات تشير إلى البعد الزمني في نظام المعجم العربي .

سابعا : اللغة العربية أصل قائم بذاته .

لقد كشفت نظرتنا الصوتية إلى المعجم العربي أن النظام اللغوي للعربية يعكس جميع المراحل التي مرت بها نشأة الكلام الانساني . ويثبت ذلك بشكل قاطع أن اللغة العربية أصل قائم بذاته .

ويعني ذلك أن ***المادة اللغوية للعربية المتوافرة حتى يومنا الراهن والتي حفظها لنا نظام المعجم العربي تقدم شواهد تاريخية علمية تروي قصة نشأة الانسان واللسان ، ويترتب على هذه الحقيقة العلمية الجديدة النتائج التالية :***

أ -***العرب هم عرب منذ ظهور الحياة الانسانية في وطنهم .***

ب -***اللغة العربية هي اللغة الأصلية للشعب العربي منذ بداية وجوده .***

ج -***كشف زيف فرضية (أسرة اللغات السامية) و(الشعب السامي) ويتبع ذلك بالضرورة إعادة كتابة التاريخ العربي .***

د -***اكتشاف خصائص جديدة تتميز بها بنية العربية . وقد عمدنا بالاستناد إليها إلى اقتراح طريقة صوتية جديدة في وصف قواعد صرف العربية تنطلق من الأصل في الاشتقاق في العربية هو صيغة فعل الأمر العامة للشخص الثاني .***

هـ -***إغناء المعارف الانسانية*** في المجالات التالية :

1 - الكشف من كيفية ارتباط اللغة بالتفكير وتحديد المراحل والأطوار التي مرت بها نشأة الكلام الانساني .

2 - الكشف عن تاريخ ظهور الانسان العاقل ، وعن معطيات أنثروبولوجية جديدة وعن جوانب هامة في التاريخ الانساني في الفترة المسماة (ما قبل التاريخ) .

3 - ***إمكانية اقتباس اللسانيات الحديثة للمنهج التاريخي العلمي - منهج مدرسة أبي علي الفارسي اللغوية الذي بلوره ابن جني وعبد القاهر الجرجاني في نظريتين متتامتين لدى دراسة تاريخ مختلف اللغات . والاستفادة من النموذج الفريد الذي تقدمه العربية لنشأة اللغةالانسانية ومراحل تشكل نظامها اللغوي واكتماله .***

الهوامش

(1) للتوسع في الموضوع ارجع إلى مقالتنا «الدراسات الصوتية في التراث اللغوي العربي» المنشورة في مجلة (المعرفة) بدمشق – العدد 224 – آب 1981 .
(2) للتوسع في الموضوع ارجع إلى مقالتنا «الساكن والمتحرك في علم العربية» المنشورة في مجلة (اللسان العربي) بالرباط – العدد 20 1983 .
(3) للتوسع في الموضوع ارجع إلى مقالتنا «نظرة جديدة إلى المعجم العربي – القسم الأول : مراحل تشكل نظام المعجم العربي وتكونه» المنشورة في مجلة (اللسان العربي) بالرباط – العدد 26 1986 .
(4) المؤلفات الكاملة – المجلد الأول – مطابع الادارة السياسية للجيش – دمشق 1982 ص 71 .
(5) – المؤلفات الكاملة – المجلد الأول ، ص 341 – 344 .
(6) المؤلفات الكاملة – المجلد الأول . 258 – 259 .
(7) دار العلم للملايين – بيروت .
(8) نشرت في مجلة (المعرفة) بدمشق – عدد تشرين الأول سنة 1962 .
(9) (مغامرات لغوية) ص 366 .
(10) (مغامرات لغوية) ص 242 .
(11) نشرت في مجلة (اللسان العربي) بالرباط – عدد يناير سنة 1972 .
(12) تاريخ العرب / مطول / بقلم د . فيليب حتي ود . إدورد جرجي ود . جبرائيل جبور الطبعة الرابعة ، 1965 ، دار الكشاف ، ج 1 ، ص 9 .
(13) تاريخ العرب / مطول / ، ج 1 ، ص 8 .
(14) تاريخ العرب / مطول / ج 1 ، ص 14 .
(15) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام تأليف د . جواد علي ، دار العلم للملايين بيروت – الطبعة الأولى ، 1968 – ج 1 ، ص 225 .
(16) «تاريخ العرب (مطول)» ، ج 1 / ص 53 .
(17) «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» ، ج 1 / ص 14 .
(18) «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» ، ج 1 / ص 25 – 26 .
(19) «المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام» ج 1 / ص 294 .
(20) مجلة (الموقف الأدبي) بدمشق – العدد . 117 – كانون الثاني 1981 .
(21) للتوسع في الموضوع ارجع إلى :
أ) مقالتنا «استجابة اللغة العربية لتحولات العصر» المنشورة في مجلة (الموقف الأدبي) بدمشق – العدد 180 – نيسان 1986 .
ب) الخصائص لابن جني – حققه محمد علي النجار – دار الهدى بيروت .
ج) «دلائل الاعجاز في علم المعاني» للامام عبد القاهر الجرجاني – صحح أصله الامام محمد عبده – الناشر مكتبة القاهرة – 1961 .
د) «الموجز في شرح دلائل الاعجاز في علم المعاني» الدكتور جعفر دك الباب – مطبعة الجليل – دمشق – 1980 .
(22) إصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية – 1979 .
(23) للتوسع في الموضوع ارجع إلى مقالتنا «مراحل نشأة الكلام الانساني» المنشورة في مجلة (اللسان العربي) بالرباط – العدد 25 .
(24) ارجع إلى «محاضرات في الألسنية العامة» ترجمة يوسف غازي ووحيد النصر – المؤسسة الجزائرية للطباعة /1986 .
(25) ارجع إلى «مبادىء اللسانيات العامة» ترجمة د . أحمد الحمو – إصدار وزارة التعليم العالي السورية / 1984 – 1985 .
(26) في القسم الأول منها المشار إليه أعلاه .
(27) المنشورة في مجلة (التراث العربي) بدمشق – العدد رقم 11 – 12 / 1983
(28) الكتاب ج 1 ، الأبواب (علم ما الكلم من العربية) (مجاري أواخر الكلم في العربية) (المسند والمسند إليه) .
(29) في قسمها الثاني (المبادىء التي يقوم عليها نظام المعجم العربي والتسلسل الزمني لظهورها) المنشورة في مجلة (اللسان العربي) بالرباط – العدد 27 / 1987 .

مشاكل المترجم العربي في المنظمات الدولية(*)

بقلم : **الدكتور علي القاسمي**
مدير التربية
المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة – إيسيسكو – الرباط

جرائم الترجمة :

قبل ثلاث سنوات فقط نشر الأستاذ جوليو – سيزار سانتويو الأستاذ بجامعة ليون كتابا بالاسبانية بعنوان (جريمة الترجمة)[1] أو كما ترجمه بعضهم إلى الأنجليزية (هؤلاء المترجمون المجرمون) . والأستاذ المؤلف هو نفسه مترجم مشهود له بالكفاءة والمقدرة . ويفتتح مقدمة كتابة بالقول إنه لا يفهم لماذا لا تعج السجون بالمترجمين ولا تزخر المحاكم بهم مادام العديد منهم يقترف جرائم السرقة ، والكذب ، والتزوير ، والجهل . ثم يعقب على ذلك شارحا : «إن مما لاشك فيه أن سمعة كثير من المؤلفين الأجانب قد نالها الأذى وأصابها الضرر من جراء الترجمات الاسبانية لأعمالهم ، فقد تمت صياغة هذه الترجمات بأسلوب رديء ، وأغفلت فقرات برمتها أو ترجمت بكلام لا معنى له حيث أن القارىء الاسباني لابد أن يتسائل لماذا يتمتع ذلك المؤلف الأجنبي بتلك السمعة الطيبة في بلاده ...» . ويخلص المؤلف إلى القول بأن المثل الايطالي«المترجم خائن» (traduttore, traditor...) صادق تماما ويقترح أن يكتب على أغلفة بعض الكتب المترجمة (خيانة فلان) بدلا من (ترجمة فلان) . ولكي يبرهن المؤلف على صحة وجهة نظره وصوابها يضرب في كتابه الذي يقع في 225 صفحة أمثلة على الأخطاء الصارخة في ترجمة الأعمال الأدبية الشعرية والنثرية وفي ترجمة الأفلام السينمائية[2] .

وإذا كان في حكم الأستاذ سانتويو شيء من القسوة على المترجمين فإن له ما يبرره بالنسبة للمترجمين الاسبان الذين سرد نصوصا من ترجماتهم حافلة بالأغلاط الفظيعة مليئة بالتجاوزات الشنيعة . وليس لدينا ما يرجح اختلاف الوضع في الأقطار الأخرى عنه في اسبانيا . وليس لدينا ما يشير إلى أن المترجمين الاسبان أقل براعة من نظرائهم المترجمين في بقية أنحاء العالم ، ولو اضطلع بعض أساتذة الترجمة

(*) ألقيت في اللقاء العالمي حول (مشاكل الترجمة المهنية في العالم العربي وإسهام التكنولوجيا الحديثة في معالجتها) الذي نظمته مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة، 1 – 3 يونيو 1989.

في البلاد العربية أو أوربا أو أمريكا بدراسة مقارنة للكتب المترجمة وأصولها كتلك التي قام بها الأستاذ سانتويو لتوصلوا إلى نتائج لا تختلف عن نتائجه كثيرا على الأرجح .

بين المترجم الأدبي والمترجم الدولي :

وفي ظني أن الخطأ الذي يقع فيه مترجم النص الأدبي (وسأشير إليه فيما يلي بالمترجم الأدبي) أقل فداحة من الخطإ الذي يرتكبه المترجم العامل في المنظمات الدولية أو المؤتمرات العالمية (وسأشير إليه فيما يلي بالمترجم الدولي) . فخطأ المترجم الأول يؤدي إلى الاساءة إلى النص الأدبي والتقليل من قيمته الجمالية وبالتالي حرمان القارئ من التمتع بالنص المترجم بنفس الدرجة التي يبلغها قارئ النص بلغته الأصلية . أما خطأ المترجم في المنظمات الدولية أو المؤتمرات العالمية فقد يتسبب في إطالة المناقشات ، أو عدم التوصل إلى اتفاق مرجو ، أو حتى إلى توتر العلاقات بين الأطراف المعنية . وكم من مرة لاحظت في المؤتمرات الدولية نقاشا يحتد وجدلا يتفاقم نتيجة عدم استطاعة الترجمان (المترجم الفوري) نقل أقوال المتكلم بأكملها ، أو بسبب نقله لمعان لم يرم إليها المتكلم ولم يقصدها بتاتا ، وقد اعتذرت إحدى الدول الأسيوية من الانضمام لاحدى الوكالات الدولية المتخصصة في منظومة المؤتمر الاسلامي لأن ميثاق تلك الوكالة المترجم إلى الأنجليزية يشير إلى «الدول الاسلامية الأعضاء» في حين أن دستور تلك الدولة ينص على أنها دولة علمانية . وفي حقيقة الأمر كان النص الأصلي في ميثاق تلك الوكالة الدولية المتخصصة المدون باللغة العربية يشير إلى «الأقطار الاسلامية الأعضاء» وعندما أوضح المدير العام للوكالة الأمر للمسؤولين في تلك الدولة تم انضمامها إلى الوكالة بعد تأخر دام أكثر من سنتين اضطر المدير العام خلالها السفر مرتين إلى تلك البلاد . وهكذا فإن خطأ ذلك المترجم أدى إلى ضياع كثير من الوقت والجهد والمال .

مشاكل المترجم العربي :

ولكن للمترجم العربي الدولي بعض العذر ، ولا يجدر بنا أن نلقي عليه اللوم كله ، وإنما ينبغي علينا تسليط الضوء على المشاكل التي يواجهها ، وتمحيصها ، وتحليلها ، والوقوف على مصادرها ، واقتراح الحلول الناجعة لها . فالمترجم العربي خليق بالدعم والمساعدة لأنه يقوم بخدمة جليلة للثقافة العربية ورقيها في داخل الوطن العربي وخارجه . وفي الصفحات القادمة سأعرض بعض هذه المشاكل مع الحلول المقترحة .

مشكلة الوقت :

من أهم العوامل التي تؤدي إلى وقوع المترجم الدولي في الخطأ هو عامل الوقت ففي حين أن المترجم الأدبي يزاول هوايته أنى يروق له ذلك وحيثما يرغب فإن المترجم الدولي مقيد بوقت محدود . وإذا كان للمترجم الأدبي أن يشرع في عمله بعد العشاء في داره المريحة وهو يتناول قهوته أثناء استشارته لعدد من المعاجم الأحادية اللغة أو الثنائية اللغة ويترجم المقدار الذي يحلو له ، فإن المترجم الدولي يشترك عادة في مكتب واحد مع عدد من المترجمين الآخرين وأحيانا مع بعض الراقنات وعليه أن يتم ترجمة مقدار محدد من الصفحات يوميا . أما زميله الترجمان (المترجم الفوري) فهو في وضع لا يحسد عليه إذ أنه يجلس في مقصورة لا تربو مساحتها على المترين المربعين وليس في استطاعته أن يعود إلى معجم أو مرجع . وفي كثير من المؤتمرات الدولية التي شاركت في تنظيمها رأيت المترجمين يمضون النهار بأكمله ويسهرون الليل حتى الصباح لاتمام ترجمة الوثائق التي ستعرض على جلسة اليوم التالي .

قدرة المترجم الانتاجية :

إن كثير من المؤسسات التي تستخدم المترجمين تطلب من المترجم حدا أدنى من الانتاج في كل يوم عمل . وقد قام المترجم الايطالي فابريزيو مجالي ، رئيس تحرير مجلة (المترجم الجديد) الايطالية بمسح إحصائي لمعرفة قدرة المترجم الانتاجية في عدد من الأقطار والمؤسسات . وقد حدد وحدته المعيارية بالصفحة الايطالية المستخدمة مقياسا للترجمة التقنية ، وهذه الصفحة تشتمل على 25 سطرا يحتوي كل سطر على 60 حرفا أو بعبارة أخرى أن الصفحة الواحدة تضم ما معدله (220) كلمة وهذا يوافق تقريبا متوسط الصفحات باللغتين العربية والأنجليزية . واستنادا إلى مصادر متعددة أفاد السيد مجالي أن معدل إنتاج المترجم الواحد في اليوم هو بين خمس وسبع صفحات (لمترجمي الحكومة الأمريكية) ، وثماني صفحات (لمترجمي منظمة الأمم المتحدة) ، وتسع صفحات (لمترجمي الشركات الألمانية الغربية)[3] .

ومن ناحية أخرى ، قامت المترجمة إيزابل ليونارد بمحاولة لقياس القدرة الانتاجية للمترجمين الأحرار ، أي الذين يعملون لحسابهم الخاص ، فوزعت استبيانا على المترجمين الأحرار الذين شاركوا في مؤتمر جمعية المترجمين الأمريكيين الذي انعقد في نيويورك عام 1984 ، وحصلت على إجابات 79 مترجما ، ووجدت أن 57% منهم يترجمون ما معدله 2900 كلمة في اليوم الواحد أي حوالي 13 صفحة بمقياس السيد مجالي . وكانت نتائجها التفصيلية كما يلي :

عدد المترجمين	نسبتهم	عدد الكلمات يوميا
1	% 1	1،000 – 0
21	% 27	1،999 – 1،000
22	% 28	2،999 – 2،000
25	% 32	3،999 – 3،000
5	% 6	4،999 – 4،000
4	% 5	5،999 – 5،000
1	% 1	6،999 – 6،000
0	% 0	7،999 – 7،000
2	% 3	8،999 – 8،000
المجموع : 79	(103% بسبب تقريب الأرقام)[4]	

العوامل المؤثرة في قدرة المترجم الانتاجية :

ولا شك في أن قدرة المترجم الانتاجية تتوقف على عدد من العوامل أهمها :

1) **صعوبة النص** : هل يتناول النص قضايا الجينات في الكيمياء الحيوية ، أم خبرا عن زيارة يقوم بها وزير الخارجية لدولة صديقه مثلا ؟

2) **الهدف من الترجمة** : هل المقصود من الترجمة مجرد اطلاع المسؤولين على الموضوع أم أنه معد للنشر في صحيفة ، أو للنشر في كتاب أدبي ؟

3) **وسائل المترجم** : هل يكتب المترجم الترجمة بنفسه ، أو يرقنها على آلته الكاتبة ، أو يمليها على كاتبة اختزال ، أو يستخدم الحاسوب في ذلك ؟ ومن ناحية أخرى هل يستخدم المعاجم العادية وسيلة معينة أم يستخدم المعاجم والمعلومات المخزونة في الحاسوب ؟

4) **خبرة المترجم** : هل للمترجم خبرة طويلة في الترجمة ؟ وهل له خبرة في ترجمة نصوص في حقل الاختصاص ذاك ؟

5) **اللغة التي يترجم إليها** : هل يقوم المترجم بنقل النص الأجنبي إلى لغته الوطنية ، أم بنقل النص إلى اللغة الأجنبية ؟

6) **الضوضاء الخارجية** : والمقصود هنا بالضوضاء الخارجية عدد المرات التي يقاطع فيها المترجم أثناء عمله ، وهل يعمل في المكتب لوحده أم يشترك مع آخرين قد يشوشون عليه ؟

ويصرف النظر عن هذه العوامل التي سنعرض لبعضها بعد قليل ، فإن المشكلة التي يواجهها معظم المترجمين العرب في المنظمات الاقليمية والدولية في البلاد العربية ، تتمثل في النقص في عدد المترجمين بحيث يضطر المترجم إلى العمل بصورة متواصلة وتحت ضغط الوقت لاتمام العمل المطلوب ، ولا تكمن مشكلة المترجم الدولي أثناء المؤتمرات في عدد الصفحات التي ينبغي عليه ترجمتها وإنما في التعديلات والتحريرات المتكررة التي يجري إدخالها بصورة مستمرة على النصوص وضرورة ترجمتها وإدخالها في بقية النصوص ، وكذلك في مطابقة النص بلغات عمل المؤتمر المختلفة فالتعديلات والتغييرات التي تجري على الصفحة قد تستغرق وقتا أطول من ترجمة الصفحة ذاتها . وخليق بنا أن نزيد عدد المترجمين وننظم عملهم بطريقة تضمن الراحة لهم بصورة منتظمة ، وخاصة أثناء انعقاد المؤتمرات إذ يجب أن يكون هنالك فريقان من المترجمين أحدهما يعمل أثناء النهار والآخر يعمل أثناء الليل بعد أن نال قسطا من الراحة .

مشكلة تأهيل المترجمين وتخصصهم :

من الممكن جدا أن تكون شاعرا مفلقا أو مترجما بارعا دون أن تحصل على أية شهادة جامعية . وكان المترجمون في السابق يحترفون مهنتهم دون إعداد متخصص وإنما كان معظمهم من دارسي اللغات الأجنبية الذين نمّوا لديهم مهارات الترجمة بالممارسة . أما اليوم فإن معظم المترجمين قد حصلوا على تأهيل رسمي متخصص في الترجمة . ففي الولايات المتحدة لاتتجاوز نسبة المترجمين الذين لم يتموا تكوينهم الجامعي في الترجمة إلى 30% ، وتنخفض هذه النسبة في بريطانيا وألمانيا والأراضي المنخفضة إلى 10% . أما في البلاد الاسكندنافية فيكاد أن يكون هذا النوع من المترجمين معدوما(5) .

وفي داخل معاهد الترجمة الحديثة في أوربا يتخصص الطالب بالترجمة التجارية ، أو الصناعية ، أو العلمية ، أو القانونية ، وقد أقدمت جامعة دسلدورف الألمانية على منح شهادة في الترجمة الأدبية . وهذا أمر تفرضه الفروق المعرفية واللغوية القائمة بين نصوص تنتمي إلى حقول المعرفة المتباينة .

ولكن معاهد الترجمة في الوطن العربي لا تتعامل مع تخصصات الترجمة المختلفة وتعد طلابها إعداد عاما موحدا . فأحدث هذه المعاهد (مدرسة الملك فهد العليا للترجمة بطنجة) يقدم لطلابه بالاضافة إلى دروس اللغات ، والترجمة ، والمصطلحية ، موضوعات أخرى : مبادىء في الاقتصاد ، ومدخل إلى دراسة القانون ، والعلاقات الدولية ، والقانون الدولي العام ، ومنظمات جهوية (إقليمية) ودولية ، وقضايا الساعة(6) . وهذا يعني أن المدرسة تعد طلابها ليصبحوا مترجمين في منظمات دولية مثل منظمة الأمم المتحدة . ولكن المنظمات الدولية ليست كلها منظمات سياسية مثل منظمة الأمم المتحدة في نيويورك ، فمعظم منظمات منظومة الأمم المتحدة هي منظمات متخصصة مثل منظمة

الصحة العالمية بجنيف ومنظمة التنمية الصناعية بفينا ومنظمة التغذية والزراعة بروما ، وغيرها . أضف إلى ذلك أن سوق العمل بالمنظمات الدولية السياسية محدود وأنه لابد لمعظم خريجي معاهد الترجمة العربية أن يطرقوا أبواب الشركات الصناعية والتجارية العالمية والوطنية .

ولهذا كله يتحتم على معاهد الترجمة في الوطن العربي أن تفتح المجال لطلابها لاختيار التخصصات المختلفة فهذا ييسر للمتخرجين الحصول على عمل كما يحقق لهم النجاح في عملهم لتوفرهم على التدريب اللازم في اللغة المتخصصة ذاتها .

مشكلة المعجم العربي :

إن أهم وسيلة من وسائل المترجم هي المعجم الثنائي اللغة سواء أكان يدويا أم إلكترونيا . فكلما كان المعجم جيدا دقيقا شاملا كلما كان عمل المترجم سهلا أمينا سريعا . وقد دلت نتائج استبيان وزعته مجلة (اللغة الشهرية) على قرائها من المترجمين في أوربا وأمريكا أن الأغلبية الساحقة منهم تفضل المعاجم الثنائية اللغة على المعاجم الأحادية اللغة والمعاجم المتعددة اللغة ، وذلك لدقة المعاجم الثنائية اللغة وشموليتها ، ولأن إيجاد المعنى المطلوب فيها يستغرق وقتا أقصر مما في المعاجم الأحادية اللغة . ولكن المعجم العربي الثنائي اللغة حديث العهد لا يتجاوز عمره القرن الواحد من الزمن فهو لا يتوفر على الخبرة التي تجمعت لشقيقه المعجم العربي الأحادي اللغة خلال قرون طويلة من النمو يعد بعضلها عميد المعاجم في العالم . ويعاني المعجم العربي الثنائي اللغة من مشكلتين أساسيتين هما :

١) تكديس أشباه المترادفات في مقابل الكلمة الأجنبية الواحدة : ففي معجم المنهل (فرنسي – عربي) الذي يعد أكثر المعاجم الفرنسية – العربية انتشارا في العالم العربي نجد مثلا ما يلي :

«Tombeau sm.	رمس ، لحد ، ضريح ، قبر
Tombe sf.	ضريح
Fosse sf.	لحد ، ضريح
Mausolée sm.	ضريح ، قبر ضخم

فهنا نجد أن المعجمي يستخدم الكلمات : رمس ولحد وضريح وقبر ، وكأنها مترادفات كاملة الترادف ، أو كأن الكلمة الأجنبية (Tombeau) تعني تلك الكلمات العربية جميعا . والواقع الأمر لا هذا ولا ذاك . فاللغتان العربية والفرنسية تفرقان تفريقا واضحا بين الجدث والرمس والقبر والضريح . فالجدث هو الحفرة التي تحفر لوضع الميت فيها ، وعندما يوضع الميت فيها ويحثى عليها التراب وتتساوى مع الأرض تصبح (رمسا) ، وعندما ينصب عليها الشاهد تصبح (قبرا) وعندما يبنى حوله مسجد أو بناء كبير يكون (ضريحا)(*) . ولما كانت اللغة الفرنسية تتوفر على الفروق ذاتها تكون المقابلات على الوجه التالي :

fosse sf	trou creusé pour l'inhumation des morts	جدث
tombe sf	endroit où un mort est enterré	رمس
tombeau sm	monument élevé sur les restes d'un mort	قبر
mausolée sm	monument funéraire ayant les dimensions d'un bâtiment.(8)	ضريح

وبذلك يمكن أن نصف المعجم بالدقة لأنه يعطي كل كلمة أجنبية مقابلا واحدا يسهل على المترجم استعماله ، أما معاجمنا العربية الثنائية اللغة فغالبا ما تكدس أشباه المترادفات أمام اللفظ الواحد

(*) مع ملاحظة أن (قبر) لفظ عام، وأن الاستعمال القديم خصص كلمة (لحد) للشق في جانب الحفرة وكلمة (ضريح) للشق في وسط الحفرة، كما يدل لفظ (رمس) على التراب الذي يحثى على القبر كذلك.

والأمثلة على ذلك غزيرة :

2) خلط مفردات الحقل الدلالي الواحد : وهي، مشكلة ثانية ذات صلة بالمشكلة السالفة التي يعاني منها المعجم العربي الثنائي اللغة وتؤدي إلى زيادة نثر الأشواك في طريق المترجم العربي .

وتمتاز هذه الظاهرة – إضافة إلى تكديس أشباه المترادفات – بالخلط بين العام والخاص بحيث يستخدم لفظ عام مقابلا لعدد من المفردات الأجنبية المنضوية تحت حقل دلالي واحد . ولنعد إلى معجم المنهل ذاته للنظر في المفردات التالية مع مقابلاتها المنتمية إلى حقل دلالي واحد :

accord sm	***اتفاق*** ، وفاق ، تراض ، تفاهم . ميثاق ، معاهدة
charte sf	قانون ، دستور ، شرعة
compromis sm	تسوية ، صك تراض ، **اتفاق التحكيم**
concordance sf	انسجام ، ***اتفاق*** ، توافق
concorde sm	ألفة ، ود ، وفاق
convention sf	***اتفاق*** ، مشارطة ، تعاقد
entente sf	***اتفاق***
pacte sm	ميثاق ، عهد ، ***اتفاق*** ، عقد
traité sf	(9)معاهدة ، ***اتفاق***

يتبين لنا أن المعجمي قد استخدم كلمة ***اتفاق*** كمقابل وحيد أو أحد المقابلات في جميع المفردات التي سردنا تقريبا . كما اختارها مقابلا رئيسيا لثلاث كلمات من الكلمات التسع . وهو بذلك مصيب ومخطئ في الوقت نفسه . وعلى أية حال فإجراؤه لا تقره مبادئ الصناعة المعجمية الحديثة ، فكلمة ***اتفاق*** لفظ ينضوي تحته كثير من الألفاظ الخاصة المنتمية إلى الأسرة الاشتقاقية ذاتها أو الحقل الدلالي نفسه . فكل (معاهدة) وكل (حلف) هي اتفاق ولكن ليس كل (اتفاق) هو (معاهدة) أو (حلف) . ولو رجعنا إلى أقسام الترجمة في منظومة الأمم المتحدة لوجدناها تستخدم المقابلات التالية بصورة تكاد تكون منتظمة :

accord	اتفاق
charte	ميثاق
compromis	توافق
concordance	انسجام
concorde	وئام
convention	اتفاقية
entente	وفاق
pacte	عهد
traité	معاهدة

ومعلوم أن الكلمة الفرنسية لا تترجم إلى اللغة العربية بمقابل ثابت دائما لا يتغير وإنما ينال معناه شيء من التحوير والتبديل طبقا للسياق الذي ترد فيه والاستعمالات الاصطلاحية للكلمة في لغة الأصل . ومن هنا يضطر المعجمي أن يورد المقابلات الأخرى . ويستطيع أن يفعل ذلك بطريقتين : الأولى بأن يضع المقابلات المحتملة بعد المقابل الأساسي للكلمة ، مثلا :

عهد ، ميثاق ، عقد ، وعد ، دستور :
Pacte

والثانية أن يضع المقابل الأساسي فقط متبوعا بمقابلات الاستعمالات الاصطلاحية للكلمة ، مثلا :

Pacte	عهد
Pacte de préférence (Droit)	وعد بالتفضيل
Pacte fédéral (Suisse)	دستور سويسرا الاتحادي
Pacte de Varsovie	حلف وارشو
Pacte de la ligue des Etats arabes	ميثاق جامعة الدول العربية

وقد يجمع بين الطريقتين فيضع المقابل الأساسي متبوعا بالمقابلات المحتملة ثم يدرج الاستعمالات السياقية والاصطلاحية للكلمة مع مقابلاتها العربية .

إن المترجم العربي الدولي بحاجة إلى معجم

جيد دقيق يسهّل عمله ويوفّر عليه كثيرا من الجهد والعناء .

مشكلة ميكنة الترجمة :

إن معظم الشركات المتعددة الجنسيات تستخدم الحاسوب وسيلة مساعدة للترجمة ، ويملك بعضها بنوكا للمصطلحات مثل شركة سيمنز بألمانيا التي يضم بنك مصطلحاتها أكثر من أربعة ملايين مصطلح في تسع لغات . ودل مسح إحصائي أجري في أنجلترا عام 1986 على أن أكثر من 50% من المترجمين يستعينون بمعدات إلكترونية في عملهم ، كما أعرب كثير غيرهم عن أملهم في حيازة مثل تلك المعدات في القريب العاجل .

ولا تتجاوز نسبة المترجمين الذين يقدمون ترجماتهم بخط اليد 6،9% في فرنسا و 2،4% في الأراضي المنخفضة و 3،8% في بريطانيا، وجميع هؤلاء المترجمين تزيد أعمارهم على 35 عاما(10)

والمعدات الالكترونية التي يستعين بها المترجم الغربي تحقق له السرعة وتيسّر عمله ، وهي كثيرة منها الحاسوب الذي يستخدمه لمعالجة النصوص وقد يكون مزودا بمدقق التهجئة ومدقق القواعد ، أما الترجمة الآلية بواسطة الحاسوب فيمكنها ترجمته 300.000 كلمة في الساعة (ماعدا وقت الادخال والاخراج) ، ويستطيع المحرر المكلف بمراجعة الترجمة الآلية أن ينتج 6000 كلمة في اليوم . ولكن معظم المترجمين في البلاد العربية لم يحصلوا بعد على التجهيزات الالكترونية المساعدة التي تدخل ضمن ما يسمى اليوم بالصناعات اللغوية(11) .

دليل المترجم الدولي :

إذا كان المترجم الأدبي يكتفي بالمعجم الأحادي اللغة والمعجم الثنائي اللغة ومعجم المترادفات لاختيار ألفاظه وانتقاء عباراته ، فإن المترجم الدولي يحتاج إلى معلومات لا تتوفر عليها تلك المعاجم ، فهو يحتاج مثلا إلى مسميات الوزارات والمؤسسات والتقسيمات الادارية ، بل وحتى المصطلحات الحضارية التي تختلف مع الأسف من قطر عربي لآخر . فلو كان على المترجم مثلا أن يترجم رسالة موجهة إلى وزارات التربية في البلاد العربية فلا يكفي أنه يعرف معنى عبارة Ministère de l'éducation nationale إذ أن هذه الوزارة تختلف تسميتها من قطر عربي لآخر حتى في تلك الأقطار التي تبنت تلك التسمية الفرنسية ففي المغرب هي وزارة التربية الوطنية وفي تونس وزارة التربية القومية وفي موريطانيا وزارة التهذيب الوطني . كما أنه لا يكفي معرفته لمعنى (Ministry of Education) إذ أن هذه الوزارة تتباين تسميتها من دولة عربية لأخرى حتى في تلك الدول التي تبنت تلك التسمية الأنجليزية ففي مصر وزارة التعليم وفي السعودية وزارة المعارف وفي سوريا وزارة التربية وفي الأردن وزارة التربية والتعليم وهكذا . فالمترجم العربي إذن بحاجة إلى دليل يشتمل على تسميات تلك المؤسسات ليختار التسمية المناسبة لكل قطر .

والمترجم الدولي يحتاج كذلك إلى قائمة بمقابلات الأسماء المختصرة ، فجميع المنظمات الدولية واللجان المتفرعة عنها والصناديق المتشعبة منها تستخدم حروفا قليلة بدلا من أسمائها الطويلة مثل :

ISESCO : Islamic Educational, Scientific and Cultural Organization المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة

والمترجم الدولي لا يمكن أن يحفظ تلك التسميات عن ظهر قلب لأنها تبلغ الآلاف ، وهي غير مدرجة في المعاجم ، ومن هنا أصبح المترجم

الدولي بحاجة إلى دليل يضم هذه المختصرات وما يقابلها سواء أكان هذا الدليل يدويا أو إلكترونيا .

ولفترة طويلة كانت المكتبة العربية تفتقد مثل هذا الدليل حتى استطاعت وحدة الترجمة العربية التي يرأسها السيد محمد الديداوي في منظمة التنمية الصناعية في فينا من إخراج هذا الدليل(12) .

الهوامش

(1) J.C. Santoyo, *El delito de traducir* (Léon : Universidad de Léon, 1985) 225 pp.

(2) Wendy Williams, «Those Criminals the translators» in *Language Monthly*, 29 (1986) 8.

(3) Fabrizio Megale, «Metodo di calcolo della produttività d'un traduttore» in *Language Monthly*, 21 (1985) 9 - 10

(4) Isabel Leonard, «How Many Words does a Translator Produce in a Day ? in *Language Monthly*, 21 (1985) 11.

(5) Margaret Grindod, «Portrait of a Profession», in *Language Monthly*, 29 (1986) 9 - 10

(6) البرنامج الدراسي لمدرسة الملك فهد العليا للترجمة ــ طنجة، 1989

(7) الدكتور جبور عبد النور والدكتور سهيل ادريس، *المنهل* (بيروت : دار العلم للملايين الطبعة التاسعة 1986).

(8) التعاريف الفرنسية مأخوذة من معجم لاروس للتدليل على أن اللغة الفرنسية تفرق بين معاني الكلمات الأربع
Petit Larousse Illustré (Paris : Librairie Larousse, 1983)

(9) معجم *المنهل*، مصدر سابق

(10) «Translators going electronic», in *Language Monthly*, 29 (1986) 7.

(11) Pierre Auger, «Les métiers langagiers et les industries de la langue : Presentation». *L'actualité terminologique*, Vol. 22 no. 3 (1989) 1 - 2

(12) منظمة الأمم المتحدة للتنمية الصناعية، دليل المترجم (فينا : اليونيدو، 1986).

الخلاصة :

لقد استعرضت في الصفحات القليلة التي مرت بعض الصعوبات والمشكلات التي تؤثر في قدرة المترجم العربي الدولي الانتاجية ودقته وسير عمله بشكل عام ، وأهم هذه المشكلات عدم صلاحية الاعداد والتدريب المتوفران له ، وحجم العمل الملقى على عاتقه ، وقلة الوسائل الالكترونية الموضوعة تحت تصرفه ، وسوء المعاجم العربية الثنائية اللغة التي يستخدمها وعدم توفر الأدلة المتخصصة للمترجمين ، كما اقترحت بعض الحلول لها .

الأسلوب

دراسة لغوية إحصائية

د . مازن الوعر
جامعة دمشق

مدخل

(الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية) هو عنوان الكتاب الذي ألفه الباحث اللساني العربي الدكتور سعد مصلوح[1] ونشرته دار الفكر العربي بمصر عام 1984 .

يطرح الكتاب منهجا حديثا في الأسلوبيات يمكن أن يعتبر بديلا لسانيا للنقد الأدبي المعروف . وهذا ما يجعل المؤلف يوضح الأسباب التي دعت لصياغة مثل هذا المنهج الأسلوبي فيدرس ماهية الأسلوب القديم والحديث ويبين الحاجة الماسة إلى تطبيق المعايير العلمية الدقيقة على دراسة الأنواع الأدبية ولا سيما استخدام علم الاحصاء .

وبعد أن يصوغ المؤلف المنهج الأسلوبي الحديث يحاول تطبيقه على بعض النماذج النثرية المعاصرة سواء أكان ذلك في المسرح أم في الرواية .

تطمح الدراسة الحالية إلى إعطاء فكرة واضحة ومكثفة لهذا المنهج الأسلوبي الجديد وتبيان كيفية تطبيقه على الأنواع الأدبية النثرية ... ثم تبيان الجوانب الايجابية والجوانب السلبية التي يتسم بها هذا المنهج .

1 . الحاجة إلى منهج

(1) يميز المؤلف هنا بين تذوق الأدب وبين دراسته دراسة علمية موضوعية . فالقارىء المتمرس يميز في صبر وحذق بين مختلف الأساليب . وهذا التمييز التلقائي سلاحه «الحدس» و «الذوق» وكلاهما لا يكون من فراغ ، ولكنه محصلة خبرات طويلة .

وليس بنادر أن تجد مثل هذا القارىء ينفر من أسلوب ما ، لأنه يتسم في رأيه بالجفاف أو الرتابة أو الصعوبة والتعقيد وينعطف إلى أسلوب آخر ، لأنه يتصف في ميزانه بالثراء والتنوع أو اليسر والتشويق أما دارس الأدب فلا ينبغي له أن يكون مجرد قارىء متذوق لا يختلف عن سائر القراء إلا في الدرجة . بل إن عليه أن يتمتع بازدواجية تمكنه من أن يكون حين يشاء قارئا متذوقا ، وحين يشاء دارسا محللا . والحقيقة إن الفرق بين الموقفين هو الفارق ما بين ذاتية المتلقي وموضوعية الباحث .

(2) يعتقد المؤلف أن الأدب فن ولكن دراسة الأدب ينبغي أن يكون علما منضبطا . والعلم المنضبط يحتاج إلى أن تكون له فلسفة وموضوع

ومنهج يشتمل على معايير موضوعية للقياس والوصف والاستنباط . ومن ثم لابد لدراسة الأدب من استيفاء هذه الشروط لكي تكون جديرة بأن تحتل مكانها بين العلوم . ولكن المذاهب النقدية خضعت في نشأتها وتطورها لتأثيرات الاتجاهات والمدارس الفلسفية المختلفة ومن ثم حملت معها عيوب الفلسفة ومزاياها . ومن أخص هذه العيوب الاتفاق على عدم الاتفاق . والذي نلاحظه دائما أن دائرة الخلاف كثيرا ما تتسع كلما بعدنا عن «النص الأدبي» وخضنا بالحديث في بيئة النص وعصره وحياة مؤلفه على ما هو سائد في النقد التاريخي . أما حين يكون النص هو محور الاهتمام . وموضوع الدراسة فإن حديثنا يصبح أكثر التزاما بموضوعية العلم .

(3) المذهب الشكلي في النقد – حسب رأي المؤلف – يكاد يكون أقرب المذاهب النقدية إلى روح العلم . فقد استمد هذا المذهب فلسفته النظرية من الوضعية المنطقية وعبر عن نفسه أوضح تعبير في مؤلفات الناقد الشهير ايفور ريتشاردز . ولما كان فلاسفة الوضعية المنطقية يعتبرون اللغة كلها رمزا وجعلوا الدراسة الرمز اللغوي علما خاصا أطلقوا عليه مصطلح «السيميولوجيا» أو «السيميائيات» لذلك انعكس هذا كله في دراسة النقاد الشكليين فبرزت فيها أهمية التحليل اللغوي الذي قام على أساس من التمييز الواضح بين لغة العلم ولغة الأدب .

فهم لم يستعينوا بسيرة الشاعر ولا اعتمدوا على التاريخ ، ولا استندوا إلى علم الاجتماع وعلم النفس التحليلي في فهم العمل الأدبي وتقويمه . لقد عزفوا عن الدراسة التاريخية التي كانت تدور حول النص ، وانكبوا على النص ذاته .

وهكذا فإن المذهب الشكلي في النقد كان من أهم الاتجاهات التي نبهت إلى دراسة لغة النص ، ومهدت بذلك لاثارة اهتمام علماء اللغة الخلص بقضية الأسلوب وإقامة الجسور ما بين علم اللغة ودراسة الأدب .

(4) وهكذا فإن المؤلف يدعو إلى ضرورة العمل على إرساء منهج لساني في نقد الأدب العربي يكون فيه النص أولا وقبل كل شيء موضوع الدراسة ويكون منهج الدراسة فيه لسانيا بالمفهوم العلمي لهذا المصطلح .

لقد نشأت الدراسات اللسانية المعاصرة بمختلف اتجاهاتها تحت تأثير فكرة أساسية هي البنيوية . واستطاعت هذه الدراسات اللسانية – على اختلاف اتجاهاتها – أن تطور من أدواتها وأن تولي جانبا من همومها النظرية والتطبيقية لدراسة العمل الأدبي باعتباره نمطا متميزا من أنماط الاستعمال اللغوي وأن تنتقل بوسائلها المنهجية من العمل في إطار «نحو الجملة» – وهو النحو الذي يعتبر الجملة أكبر وحدة في التحليل اللغوي – إلى محاولة ترسيخ نمط جديد من التحليل اصطلح على تسميته «نحو النص» وهو النمط الذي يعتبر النص كله وحدة التحليل .

وفي رأي المؤلف ، ما تزال دراسة الأدب العربي بعيدة كل البعد عن الافادة من إنجازات الدرس اللغوي المعاصر في هذه السبيل . وهو أمر لا يثير دهشة ، إذ أن المدرس اللساني المعاصر نفسه ما يزال محدود التأثير على دراسة العربية .

(5) يتحدث المؤلف بعد ذلك عن الثمرات التي يمكن أن نجنيها باستخدامنا هذه المناهج اللسانية الحديثة في وصف النص الأدبي .

أول ثمرة هي الوقوف في وجه طوفان المصطلحات الذي تهدر به الدراسات الأدبية المتداولة ، إذ إنه من المستحيل إخفاء الصفة العلمية على أي دراسة لا تستعمل مصطلحات محددة المدلول .

ويتساءل المؤلف هنا هل يزيد القارىء العربي معرفة بزيد أو عمرو من الكتاب أو الشعراء أن يُقال له : إنه جزل الألفاظ ، متين السبك ، سلس الأفكار : عذب الموسيقى ، محلق الخيال ، قوي العاطفة ، أو أن يقال له – على عكس ذلك – أن أسلوبه يمتاز بالركاكة والضعف والجفاف وخمود العاطفة . ؟

إن شيوع هذه الألقاب في كتب التراث لا تسوغ للمعاصرين استعمالها دون تحديد ، فلا شك أن دلالاتها عند علماء السلف كانت واضحة . وحسب رأي المؤلف ، ليس من التجاوز أن نقول : إن غالبية الأحكام النقدية التي تنتشر في مؤلفات طه حسين هي من هذا القبيل .

وليست هذه الدراسات عند جمهرة من نقادنا المتأثرين بالثقافات الأجنبية بأوفر حظا من الدقة في هذا المضمار . ذلك أن أكثر هذه الدراسات تفر من مواجهة مشكلات البنية اللغوية في النصوص لتناقش مضامين مجردة عن أزمة الانسان المعاصر ، وقضايا العبث والغثيان والقلق والمخاض ، حتى إذا رجع إلى معالجة لغة النصوص وجدناه يستخدم التعبيرات الذاتية المرنة التي لا ترقى إلى أن تكون مصطلحات علمية ، أو يقع قريبا منها :

هذه المناقشة تقود المؤلف لأن يطرح السؤال التالي : ترى هل نعني بذلك أن «الأسلوبيات» هي البديل الموضوعي للنقد الأدبي؟ والجواب حسب رأيه أن ذلك قد يكون وقد لا يكون فهو من مسائل الخلاف . لكننا نحسب أن من الأمور التي ينبغي أن تكون موضع اتفاق لقربها من بداهة العقل أن التفسير والتقويم تاليان للوصف والتحليل . والأسلوبيات هي المرجوة لأداء مهمة الوصف والتحليل على خير وجه ممكن . وهكذا فإن الأسلوبيات ليست النقد كل النقد بل هي أساس لابد منه لتقويم العمل الأدبي تقويما موضوعيا .

(6) الواقع هناك معايير موضوعية كثيرة لتحليل النص الأدبي .. ولكن المؤلف يخص كتابه كله لنوع واحد من هذه المعايير الموضوعية هو القياس الكمي أو التحليل الاحصائي للنصوص الأدبية . أي أن النص الأدبي يمتاز عادة باستخدام سمات لغوية معينة من بينها :

1 . استخدام وحدات معجمية معينة .
2 . الزيادة أو النقص النسبيان في استخدام صيغ معينة أو نوع معين من الكلمات (صفات ، أفعال ، ظروف ... إلخ)
3 . طول الكلمات المستخدمة أو قصرها .
4 . طول الجمل .
5 . نوع الجمل .
6 . إيثار تراكيب أو مجازات معينة .

فهذه السمات اللغوية حين تحظى بنسبة عالية من التكرار وحين ترتبط بسياقات معينة على نحو له دلالته تصبح خواص أسلوبية تظهر في النصوص بنسب (Ratios) وكثافة (Density) وتوزيعات (Distributions) مختلفة .

يطلق على هذا النوع من الدراسة مصطلح «الأسلوبيات الاحصائية» وهي إحدى مجالات الدراسة اللسانية الأسلوبية المعاصرة .

2 . ماهية الأسلوب

(1) يبحث المؤلف هنا في المادة اللغوية المدروسة ليبين كيف يمكن أن تتلون وتتسم بطرائق مختلفة من أجل التعبير ... تلك الطرائق المختلفة المسماة بـ «الأساليب» .

إن العمل الأدبي هو رسالة موجهة من المنشىء إلى المتلقي تستخدم فيها نفس الشفرة اللغوية

المشتركة بينهما . ويقتضي ذلك أن يكون كلاهما على علم بمجموعة الأنماط والعلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية التي تكون نظام اللغة المشتركة . ولكن كيف يتميز هذا المنشىء أو ذاك بأسلوبه الخاص في استعمال اللغة؟

(2) يرى بعض الباحثين أن اللغة المعينة هي عبارة عن قائمة هائلة من الامكانات المتاحة للتعبير ومن ثم فإن الأسلوب يمكن تعريفه بأنه «*اختيار*» أو «*انتقاء*» يقوم به المنشىء لسمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين .

ويكون الأسلوب عند هؤلاء الباحثين اختيار لا يعني أن كل اختيار يقوم به المنشىء لابد أن يكون أسلوبيا ، إذ علينا أن نميز بين نوعين مختلفين من الاختيار :

ا – اختيار محكوم بالموقف أو المقام (context of situation) وهذا الانتقاء هو انتقاء نفعي ربما يؤثر فيه المنشىء كلمة أو عبارة على أخرى لأنها أكثر مطابقة في رأيه للحقيقة أو لأنه يريد أن يضلل سامعه أو يتفادى الاصطدام بحساسية تجاه عبارة أو كلمة معينة .

ب – اختيار محكوم بمقتضيات التعبير الخالصة . وهذا الانتقاء هو انتقاء نحوي . والمقصود بالنحو في هذا المصطلح قواعد اللغة بمفهومها الشامل الصوتية والصرفية والدلالية ونظم الجملة . ويكون هذا الانتقاء حين يؤثر المنشىء كلمة على كلمة أو تركيبا على تركيب لأنها أصح عربية أو أدق في توصيل ما يريد . ويدخل تحت هذا النوع من الانتقاء كثير من موضوعات البلاغة المعروفة كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والذكر والحذف .

ويتحدد الشكل النهائي للنص بهذين النوعين من الاختيار ، أعني الاختيار النفعي والاختيار النحوي . والقول بأن الأسلوب اختيار ربما كان موافقا لما هو معلوم بالضرورة عن عملية الابداع ، واشتمالها بحكم طبيعتها على سلسلة من الاختيارات .

(3) وقد أولى فريق آخر من رواد الدراسة الأسلوبية اهتماما أكبر إلى ما يتولد عن الرسالة (أو النص) من ردود فعل لدى المتلقي ، ومن ثم أقام تعريفه للأسلوب على إبراز هذه الخاصية فيه . ويرى ميشيل ريفاتير أحد أعلام هذا الاتجاه – أن الأسلوب قوة ضاغطة تتسلط على حساسية القارىء بواسطة «إبراز بعض عناصر سلسلة الكلام ، وحمل القارىء على الانتباه إليها بحيث إن غفل عنها تشوه النص» .

ويرى المؤلف هنا وجود وشائج قوية بين مفهوم الأسلوب عند ريفاتير ونظرية التخييل الشعري التي استنبطها الفلاسفة المسلمون من شرحهم لكتاب الشعر الأرسطي ، ووصلت ذروة نضجها عند البلاغي العربي أبي الحسن حازم القرطاجني صاحب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» .

(4) وثمة رؤية أخرى للأسلوب ترى فيه مفارقة أو انحرافا عن نموذج آخر من القول ينظر إليه على أنه نمط معياري .

إن سوغ المقارنة بين النص المفارق والنص النمط هو تماثل السياق في كل منهما .

إن أداة التحليل الأسلوبي عند أصحاب هذا الرأي هي المقارنة بين الخصائص والسمات اللغوية في النص النمط مرتبطة بسياقاتها وبين ما يقابلها من خصائص وسمات في النص المفارق .

(5) والأسلوب – من وجهة نظر رابعة – ليس اختيارا ، ولا قوة ضاغطة ينبغي البحث عنها في ردود فعل المتلقي ، ولا انحرافا عن نمط معياري .

وإنما الأولى أن يعتبر إضافة. وتفترض هذه النظرة ابتداء وجود تعبير محايد لا يتسم بأي سمة أسلوبية محددة يمكن أن يسمى بالتعبير غير المتأسلب أوتعبير ما قبل التأسلب ، ثم تكون السمات الأسلوبية إضافة إلى هذا التعبير المحايد لكي تنحو به منحى خاصا موافقا للعبارة عن سياق بعينه .

وتقتضي مهمة الباحث عند أصحاب هذا المفهوم القيام بعملية تجريد أو تعرية للعبارة المتأسلبة بغية الوصول إلى الجوهر المجرد قبل أن تكسوه هذه السمات الأسلوبية المعينة .

(6) أما وجهة النظر الخامسة فتميل إلى القول بأن الأسلوب تضمين (connotation) . وهذا يعني أن كل سمة لغوية تتضمن في ذاتها قيمة أسلوبية معينة ، وأنها تستمد قيمتها الأسلوبية من بيئة النص أو الموقف . وهذه القيمة قابلة للتغير بتغير البيئة التي توجد فيها والموقف الذي تعبر عنه .

(7) ويمكن رد الخلافات النظرية حول تعريف الأسلوب إلى مبادىء ثلاثة :

أولها : أن من ركز من الدارسين على العلاقة بين المنشىء والنص راح يلتمس مفاتيح الأسلوب في شخصية المنشىء . وانعكاس ذلك في اختياراته حال ممارسته للابداع الفني . وبذلك رأى أن الأسلوب اختيار .

ثانيها : أن من اهتم منهم بالعلاقة بين النص والمتلقي التمس مفاتيح الأسلوب في ردود الأفعال والاستجابات التي يبديها القارىء أو السامع حيال المنبهات الأسلوبية الكامنة في النص .

ثالثها : أن أنصار الموضوعية في البحث أصروا على عزل كلا طرفي عملية الاتصال وهما المنشىء والمتلقي ، ورأوا وجوب التماس مفاتيح الأسلوب في وصف النص وصفا لغويا .

وقد اختلف هؤلاء في الزاوية التي يتم الانطلاق منها إلى وصف النص على النحو الذي سبق بيانه ، فمنهم من قال بأنه انحراف عن نمط ومنهم من رأى بأنه إضافات إلى تعبير محايد ومنهم من رأى أنه خواص متضمنة في السمات اللغوية تتنوع بتنوع البيئة والسياق .

والحق أن هذه المناهج الموضوعية الثلاثة كما يقول اينكيفت إنما هي مناهج متكاملة أكثر من كونها بدائل .

(8) يتضح مما سبق أن الخلاف النظري هنا حول تعريف الأسلوب ليس من قبيل الخطأ والصواب : إن أي تعريف من التعريفات السابقة قابل لأن يكون أساسا للبحث وأن الطرز النحوية جميعها ـــ بما في ذلك الطراز التقليدي – قابلة من حيث المبدأ لأن تشكل أساسا منهجيا للبحث الأسلوبي . فالجرجاني استطاع أن يصل إلى نظريته الأسلوبية التي عرفت بنظرية النظم من خلال استخدامه النحو العربي التقليدي أساسا لتمييز الأساليب .

وقد اتفقت المدرسة البنيوية والمدرسة التوليدية التحويلية على ظاهرة واحدة هي إعراضهما في أول الأمر عن تبني دراسة الأسلوب . ومرد ذلك إلى اهتمامها بالجملة باعتبارها أكبر وحدة قابلة للتحليل في المادة اللغوية . ولما كانت دراسة الأسلوب لا تكتفي بتحليل الجملة بل تتجاوزها إلى تحليل النص باعتباره هو في ذاته أكبر وحدة للتحليل وليس باعتباره مجرد سلسلة متتابعة من الجمل ، لذا فقد أحجم اللغويون في بادىء الأمر عن دراسة الأسلوب .

ولكن حيوية المشكلة الأسلوبية وطرافتها ، وصلتها الوثيقة باللغة كظاهرة وبدراستها كعلم

ما لبث أن اجتذبت اهتمام اللغويين من سلوكيين وتحوياليين ، وظهرت ثمرة هذا الاهتمام عند تلامذة بلومفيلد من أمثال بلوخ وزيليخ هاريس وكينيث بايك . كما أعطت بعض الفرضيات عند التحويليين مثل فرضية القدرة اللغوية (Competence) والأداء (performance) وفرضية البنية الظاهرة والبنية الباطنة وفرضية الجملة النواة والجملة المحولة وفرضية القاعدة الجبرية (الملزمة) والقاعدة الاحتمالية وغيرها مجموعة التصورات المنهجية التي أعانت على تمييز الفروق بين الأساليب بطريقة علمية وموضوعية .

3 . الاحصاء ودراسة الأسلوب

(1) البعد الاحصائي في دراسة الأسلوب هو من المعايير الموضوعية الأساسية التي يمكن باستخدامها تشخيص الأساليب ، وتمييز الفروق بينها .

وترجع أهمية الاحصاء هنا إلى قدرته على التمييز بين السمات أو الخصائص اللغوية التي يمكن اعتبارها خواص أسلوبية وبين السمات التي ترد في النص ورودا عشوائيا . وبيان ذلك أنه ليس كل انحراف جديرا بأن يعد خاصة أسلوبية هامة ، بل لابد لذلك من انتظام الانحراف في علاقاته بالسياق .

لقد مر استخدام الاحصاء في دراسة اللغة بمرحلتين ، ساد في أولاهما اتجاه يهدف إلى قياس الخصائص العامة (أو المشتركة) في الاستعمال . أما في المرحلة الثانية فقد ساد اتجاه مقابل هدفه التوصل إلى الخصائص الفارقة (أو المميزة) بين الأساليب والحق أن الاتجاهين يتكاملان في دراسة الأسلوب لا يتسغنى بأحدهما عن الآخر .

(2) ومن الأسئلة المطروحة في مجال الأسلوب ودراسته سؤال عن مدى ارتباط المصطلح «أسلوب» بالمصطلح «أدب» . أو بعبارة أخرى : هل الأسلوب صفة مميزة للغة الأدب فحسب أو للغة الأدب والعلم إذا شئنا شيئا من التوسع؟ أم أن جميع أنواع الاستعمال اللغوي على اختلافها قابلة لأن تصنف باعتبارها أساليب ؟ .

هنا تبرز – على حد رأي المؤلف – إحدى ثمرات الارتباط بين دراسة الأسلوب واللسانيات حيث يتخذ منظور الأسلوب آفاقا أكثر رحابة توسع من محدودية النظرة القديمة . إن كثيرا من الدراسات الأسلوبية وإن كانت تولي عناية كبرى للغة الأدب — ترى أن الأسلوبية صفة يمكن إسباغها على أي نص من نصوص اللغة .

وبهذا المفهوم توجد وجوه شبه قوية بين الأساليب واللهجات ولا سيما اللهجات الاجتماعية حتى ليمكن القول بأن الأساليب إنما هي أنواع خاصة من اللهجات الاجتماعية . وينشأ عن ذلك أن مفهوم الأسلوبيات يمكن أن يكون أشمل من أن يقتصر على دراسة لغة الأدب .

وينبغي أن يكون واضحا أننا إزاء هذا النوع من الأساليب الجماعية لا نهتم بالفروق الفردية بين الأساليب وإنما نهتم بما يميز الأسلوب الأدبي من الأسلوب العلمي أو من الأسلوب الرسمي والأسلوب المستخدم في العبادات والشعائر الدينية ، وذلك بنفس الطريقة التي نميز بها بين اللهجات المهنية ولهجات المثقفين ولهجات اللصوص والخارجين على القانون .

إن هذه الانتماءات يصنفها المشتغلون باللسانيات الاجتماعية إلى صنفين رئيسين : أولهما الانتماء المتجانس أو المتوحد وثانيهما الانتماء المتعارض أو المتعدد .

وقد نجحت الجغرافية اللغوية – وهو العلم الذي يدرس اختلاف اللهجات في المكان – نجاحا

ملحوظا في رسم الحدود بين اللهجات وذلك بابتكار فكرة خط التوزيع (Isograph) وهو الخط الذي يفصل بين منطقتين متباينتين في نطق ما . وشجع هذا النجاح على استخدام فكرة خطوط التوزيع في تمييز الحدود اللهجية بين اللهجات الاجتماعية في منطقة واحدة ، وكذلك في تحديد الأساليب .

وتتنوع خطوط التوزيع إلى خطوط التوزيع المعجمي (isolexics) وخطوط التوزيع الصوتي (isophonics) وخطوط التوزيع الصرفي (isomorphics) وخطوط التوزيع النغمي (isotonics) وخطوط التوزيع النحوي (isogrammatics) .
وبعد رصد العلاقات المختلفة بين الاستعمالات اللغوية على المستويات الصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية يتم رسم خطوط التوزيع الخاصة بكل مستوى .

(3) ويقود هذا المؤلف لأن يحدد العلاقة بين ما هو أسلوبي وما هو إحصائي عند دراسة أساليب الأعمال الأدبية . وحسب رأيه فإن الدراسة الأسلوبية تستعين بالاحصاء في المجالات الآتية :

أولا : المساعدة في اختيار العينات اختيارا دقيقا بحيث تكون ممثلة للمجتمع المراد دراسته .

ثانيا : قياس معدلات كثافة الخصائص الأسلوبية في عمل معين أو عند كاتب معين . فإذا أردنا على سبيل المثال قياس كثافة الجمل الاسمية (أو الفعلية) في نص معين قمنا بحساب عدد مرات تكرار الجمل الاسمية (أو الفعلية) في النص ثم نقسمها على طول النص (مقدرا بعدد الجمل الأخرى) وبذلك يمكننا تحديد كثافة الجمل الاسمية .

ثالثا : قياس النسبة بين تكرار خاصة أسلوبية وتكرار خاصة أخرى للمقارنة بينهما . ويتم حساب النسبة بإحصاء عدد مرات تكرار الخاصة الأولى وعدد مرات تكرار الخاصة الثانية في نص من النصوص وقسمة حاصل جمع تكرار إحداهما على حاصل جمع تكرار الأخرى .

ويمكن بهذه الطريقة حساب نسبة الجمل الاسمية إلى الجمل الفعلية أو نسبة الأفعال إلى الصفات ، أو نسبة الجمل الطويلة إلى القصيرة .

رابعا : قياس التوزيع الاحتمالي لخاصة أسلوبية معينة . إن التوزيع الاحتمالي كما يراه المؤلف يصف الاحتمال (أو التوقع) الذي تتكرر به ظاهرة ما في مجموعة من العينات .

خامسا : يخدم الاحصاء أيضا في التعرف إلى النزعات المركزية في النصوص . وبيان ذلك أن تميز نص باستخدام جمل طويلة مثلا لا يعني انعدام الجمل القصيرة في ذلك النص . بل كل ما يعنيه أن ثمة نزعة مركزية غالبة إلى استخدام الجمل الطويلة مع وجود إمكان محتمل لورود الجمل القصيرة .

(4) وطبقا لرأي المؤلف فإن هذه الاستخدامات المتنوعة لعلم الاحصاء تفيدنا في دراسة ومعالجة عدد كبير من قضاياه . إنها – بالاضافة إلى المعايير الموضوعية الأخرى – تسهم في تمييز الأساليب وتشخيصها على فرض تعاصر هذه الأساليب وهي ما يسمى بالدراسة السنكرونية كما أن استخدامها في تمييز التطور التاريخي للأساليب ليس بأقل جدوى ويسمى هذا النوع من الدراسة بالدراسة الدياكرونية .

(5) وتمتد الافادة من الاحصاء إلى منطقة تتصل اتصالا وثيقا بنقد الأدب ، وتغطي دائرة واسعة من المسائل النقدية مثل لغة الأدب ونقد الأسلوب بتمييز خصائصه كالتنوع أو الرتابة والسهولة أو الصعوبة والطرافة أو الاملال . ذلك لأن هذه الأحكام الذاتية التي يصدرها القراء وطائفة من النقاد الذين يحتكمون إلى أذواقهم المدربة ترتبط

بوجود منبهات هي في معظم الأحيان سمات لغوية معينة ترد في النصوص بتكرار معين ونسب وكثافات وتوزيعات معينة .

(6)هناك ميدان هام حقق فيه القياس الكمي نتائج طيبة ، ونعني به ميدان ترجيح نسبة النصوص مجهولة المؤلف أو المشكوك في نسبتها إلى مؤلفين بأعيانهم . وتشتد الحاجة إلى الاستعانة بالمنهج الاحصائي عندما تنعدم الشواهد التاريخية أو الوثائقية النصية التي يمكن الاعتماد عليها لترجيح قول على قول .

(7) ولا تنحصر أهمية القياس الكمي للأسلوب في مجالات الدراسة الأدبية عامة ، ونقد الأدب خاصة بل تتجاوزها إلى دائرة واسعة من العلوم الانسانية التي تهتم بعملية الاتصال اللغوي . ويأتي علم النفس اللغوي أو اللسانيات النفسية في مقدمة هذه العلوم ، حيث تستخدم هذه القياسات كمؤشرات هامة في التعرف إلى القدرات ودراسة كثير من الجوانب المتصلة بالشخصية والأسس النفسية للابداع القولي .

4 . قضايا أساسية في دراسة لغة الأدب

يعرض المؤلف هنا للاستفادات التي يمكننا أن نجنيها أن من الأسلوبيات عندما نطبقها على دراسة لغة الأدب بأنواعه المختلفة .

(1) أولى هذه الاستفادات حل الاشكال بين الأسلوب العلمي والأسلوب الأدبي . ويعرض بهذا الشأن لكتاب الأسلوب لأحمد الشايب الذي ميز بين الأسلوبين العلمي والأدبي بما يلي :

فالشايب يعتمد أولا على تقرير العقل الرزين مصدرا ، وعلى الافادة وخدمة المعرفة غاية الأسلوب العلمي . كما يعتمد على تقرير الانفعال (أو العاطفة) مصدرا ، وعلى الاثارة إلى جانب الافادة غاية الأسلوب الأدبي .

والشايب يضفي ثانيا على العبارة في الأسلوب العلمي صفة الدقة والتحديد والاستقصاء والسهولة والوضوح . على حين يصف العبارة في الأسلوب الأدبي بأنها تعرض الحقائق رائعة جميلة ، وأنها تمتاز بالجزالة والقوة والكلمات الموسيقية .

ويرى المؤلف أن جل ما ذكره صاحب كتاب الأسلوب ربما كان صادقا تمام الصدق من زاوية حساسية القارىء المثقف المتمرس تجاه النصوص ، ولكن جميع التصورات والمصطلحات المستخدمة عصية جدا على التقنين العلمي ، فكل أولئك مفاهيم نسبية مرنة إلى حد كبير . وأنى لنا – حسب رأي المؤلف – أن نميز على وجه الدقة مقدار السهولة أو الوضوح أو الجزالة أو القوة وغير ذلك من المصطلحات ما لم نستند في التحديد إلى معايير موضوعية تتخذ أساسا للحكم .

وحين لاحظ الباحثون وجود درجات متفاوتة من الأسلوب تندرج ما بين الأسلوب الأدبي والأسلوب العلمي ظهرت فكرة تعترف بوجود قسيم ثالث شاعت تسميته بالأسلوب العلمي المتأدب .

(2) ثاني هذه الاستفادات هو التمييز بين لغة الشعر ولغة النثر وذلك التمييز الذي هو أيسر على القارىء والباحث . وهذا حق إذا قبلنا معيار الشكل وهو الوزن والقافية أساسا للتمييز على حد تعريف قدامة بن جعفر .

ولكن وجود خصائص شعرية على درجات متفاوتة في بعض النثر وغياب هذه الخصائص الشعرية في بعض ما هو موزون مقفى دفعت بعض المنشئين العرب إلى أن يستحدثوا تحت تأثير الآداب الأوربية ما سمي بقصيدة النثر أو الشعر المنثور .

وينشأ عن هذه المناقشة على حد رأي المؤلف أننا إذا نحينا الاطار الشكلي من الوزن والقافية جانبا ــ وجدنا أنفسنا أمام مشكلة حقيقية حين نريد أن نميز لغة الشعر من لغة النثر . وهذه مسألة أخرى تضاف إلى مسألة التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب . ولا شك ــ حسب رأي المؤلف ــ أن أفضل حل لهاتين المسألتين لا يتأتى إلا بمحاولة تحليل لغة النصوص كما أسلفنا .

(3) هناك مسألة ثالثة يمكن أن يلتمس حلها في تحليل لغة النصوص من الوجهة الأسلوبية وهي تنوع الأساليب بتنوع الأجناس الأدبية . ولعل من أهم الأفكار المستنيرة التي سبق إليها صاحب كتاب «الأسلوب» دعوته إلى اعتبار دراسة الأسلوب بديلا للبلاغة القديمة وإلى أن تشتمل هذه الدراسة فيما تشتمل على دراسة ما تتميز به فنون الأدب المختلفة كالمقالة والمقامة والخطبة والجدل والمناظرة وغيرها .

والسؤالان الواردان هنا هما : هل يتميز كل جنس من أجناس الأدب بسمات أسلوبية مميزة ؟ وهل تتنوع السمات الأسلوبية داخل العمل الأدبي الواحد تبعا لاختلاف المؤثرات التي تكيف البنية اللغوية والفنية للنصوص ؟ .

(4) من الطبيعي أن يكون لعلاج «لغة الأدب» منظوران : أحدهما «لغوي» والآخر «أدبي» وأن نتوقع من اللغويين والنقاد عملا دائبا نشطا في محاولة تشخيصها . ويبرز النقد الشكلي كواحد من أهم الاتجاهات النقدية التي أولت عنايتها لتحليل لغة العمل الأدبي ، وهذا ما عبر عنه الناقد الانكليزي أيفور رتيشاردز بنصه الشهير في كتابه «مبادىء النقد الأدبي» تحت عنوان «الوظيفة المزدوجة للغة : الوظيفة العلمية والوظيفة الانفعالية» .

وبالرغم من دعوى رتيشاردز أن التمييز بين الاستعمالين بسيط لم تحض أفكاره هذه بلا معارضة حتى بين النقاد أنفسهم ، وكان من بين معارضيه الناقد ج . رانسوم والناقدة إيزابيل هانجرلاند .

وقد أدى الجدل النقدي حول التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب إلى تزايد اهتمام اللغويين بها وحفزهم على إنضاج مفاهيمهم وتصوراتهم المنهجية وتحسين وسائل الدراسة . وبذلك محاولة هامة للانتقال من دراسة قواعد تركيب الجملة إلى قواعد تركيب النص (أو الخطاب) .

5 . معادلة بوزيمان

(1) يحاول المؤلف هنا تقديم بديل موضوعي يمكن على أساسه تمييز الأساليب وحل القضايا التي أسلف الحديث عنها . وهي :

ا . تمييز لغة الأدب من لغة العلم .

ب . تمييز لغة الشعر من لغة النثر .

ج . تمييز اللغات المستخدمة في الأجناس الأدبية .

تعرف المعادلة التي تستخدم لقياس هذه الخصائص وتشخيص لغة الأدب تشخيصا كميا باسم معادلة بوزيمان نسبة إلى العالم الألماني أ . بوزيمان .

وخلاصة الفرض الذي وضعه أن من الممكن تمييز النص الأدبي بواسطة تحديد النسبة بين مظهرين من مظاهر التعبير : أولهما التعبير بالحدث أي الكلمات التي تعبر عن حدث أو فعل . وثانيهما التعبير بالوصف أي الكلمات التي تعبر عن صفة مميزة لشيء ما .

ويتم حساب هذه النسبة ــ بإحصاء عدد الكلمات التي تنتمي إلى النوع الأول وعدد كلمات النوع الثاني ثم إيجاد حاصل قسمة المجموعة الأولى على المجموعة الثانية . ويعطينا حاصل القسمة قيمة عددية تزيد وتنقص تبعا لزيادة ونقص عدد كلمات

المجموعة الأولى على المجموعة الثانية ، وتستخدم هذه القيمة باعتبارها دالا على أدبية الأسلوب فكلما زادت كان طابع اللغة أقرب إلى الأسلوب الأدبي ، وكلما نقصت كان أقرب إلى الأسلوب العلمي .
وانتهت بحوث بوزيمان إلى ملاحظة أخرى حول العلاقة بين اللغتين المنطوقة والمكتوبة تتلخص في القول بأن اللغة المنطوقة تمتاز بزيادة النسبة المذكورة على حين تمتاز اللغة المكتوبة بانخفاضها .

وبما أن معدل السرعة في الكتابة أكثر بطئا منه في النطق — لذا فإن الفواصل الزمنية بين تدوين الكلمات تؤدي إلى إتقان عملية تجسيد الأفكار وتحديدها ويؤدي هذا بدوره إلى مزيد من استخدام الصفات على حساب استخدام الأفعال .

وبالرغم من ملاحظة بوزيمان زيادة نسبة الأفعال (الحدث) في الأسلوب الأدبي عنها في الأسلوب العلمي ، وفي الكلام المنطوق عنها في الكلام المكتوب نجده يقرر في دراساته الأولى أن هذه النسبة ثابتة في أسلوب ألفرد . بيد أنه عدل في دراساته اللاحقة من دعواه الأولى .
وواضح من عرضنا للفرض الذي وضعه بوزيمان والمعادلة التي اقترحها أن نظرية بوزيمان قد تشكلت ملامحها في إطار البحوث السيكولوجية التي تهتم بدراسة الشخصية أو على وجه الدقة في إطار اللسانيات النفسية . وقد أسفر تطبيق المعادلة عن إمكانات كبيرة لقياس درجة الاستقرار العاطفي عند الأفراد وخاصة في بحوث علم نفس الطفل ، كما اكتشف أيضا وجود ارتباط مرتفع بين زيادة هذه النسبة واتصاف الشخصية بخصائص معينة مثل الحركية والعاطفية وانخفاض درجة الموضوعية والعقلانية وعدم توخي الدقة في التعبير .

(2) على الرغم من صحة هذه الفرضية إلا أن الباحثين قد لاحظوا غموض المصطلحين اللذين استخدمهما في صياغة معادلته وهما : الحدث والوصف . ورأوا أن تطبيقهما على النصوص اللغوية يوقع في الكثير من الحيرة والارتباك وأن تحديد انتماء الكلمات إلى أي من هذين النوعين يتم أحيانا بقدر غير قليل من التخمين مما يؤثر على انضباط المقياس وموضوعيته .

وإذا كانت هذه الملاحظة صائبة بالنسبة للغة الألمانية فإنها صادقة إلى حد كبير على اللغة العربية ، فنحن نعلم أن اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة باسم الفاعل ، كل أولئك وصف يعمل عمل الفعل ومن ثم فإن تحديد انتماء أيها إلى كلمات الحدث أو كلمات الوصف يبدو مشكلة ليست يسيرة الحل .

وإحساسا بضرورة استعمال مصطلح واضح المفهوم يمكن التعرف على ما طوره عالم النفس الألماني نوبياور والباحثة انسبروك لتبسيط المعادلة وتدقيق صياغتها وذلك باستخدام عدد الأفعال بدلا من قضايا الحدث ، واستخدام عدد الصفات بدلا من قضايا الوصف وبذلك اتخذت المعادلة الشكل الآتي :

$$\text{نسبة الفعل إلى الصفة} = \frac{\text{عدد الأفعال}}{\text{عدد الصفات}}$$

(3) وزيادة في تدقيق المقياس جرى تحديد المصطلحين «فعل» و «صفة» في الدراسات التي أجريت علي الانكليزية والألمانية . وقد شملت فصيلة الأفعال جميع الأفعال باستثناء الأفعال المساعدة . وأما «الصفات» فقد شملت جميع الكلمات الواقعة صفة في التعبير صفة + موصوف بما في ذلك الأسماء الجامدة إذا استخدمت كصفات .

أما بالنسبة للغة العربية فإننا نستثني من الاحصاء الأنواع الآتية :
ا . الأفعال الناقصة .

ب . الأفعال الجامدة .
ج . أفعال الشروع والمقاربة .

أما بالنسبة لعدد الصفات فقد أخرج المؤلف منها الجملة التي تقع في النحو التقليدي صفة . وفيما عدا ذلك فقد شمل الاحصاء جميع الأنواع الأخرى من الصفات بما في ذلك الجامد المؤول بالمشتق كالمصدر الواقع صفة والاسم الموصول بعد المعرفة . والمنسوب ، واسم الاشارة الواقع بعد معرفة .

(4) يتناول المؤلف هنا أثر صياغة العمل الأدبي على نسبة الفعل إلى الصفة (ن ف ص) ليخرج بالمقولات التالية :

ا . الكلام المنطوق يمتاز بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في الكلام المكتوب .
ب . نصوص اللهجات تمتاز بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في النصوص الفصحى .
ج . النصوص الشعرية تمتاز بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في النثر .

وحسب رأي المؤلف تختلف (ن ف ص) ارتفاعا وانخفاضا باختلاف فنون القول في الشعر والنثر على النحو التالي :

ا . تمتاز الأعمال الأدبية (القصة والقصيدة والرواية والمسرحية) بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في الأعمال العلمية .
ب . يمتاز النثر الأدبي بارتفاع (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في النثر الصحفي .
ج . ترتفع (ن ف ص) في قصص الجنيات وتتناقص في الحكايات الشعبية .
د . يمتاز الشعر الغنائي بارتفاع (ن ف ص) في مقابل الشعر الموضوعي (المسرحي مثلا) .

ومن أهم مؤثرات الصياغة طريقة العرض . وقد استظهر أنتوش من دراسته لبعض الأعمال الروائية في الألمانية أربعة أنواع من طرق العرض هي :

ا . الحوار الطبيعي .
ب . المونولوج .
ج . الكتابة السردية والوصفية الخالصة .
د . الأحاديث المتناثرة في الأجزاء السردية من النص .

وقد دلت المؤشرات الاحصائية في بحث أنتوش على مايلي :

أولا : أن نسبة (ن ف ص) في السرد والوصف أقل منها في المونولوج وفي المونولوج أقل منها في الحوار .

ثانيا : أن نسبة (ن ف ص) مع السرد تكون أعلى إذا كان السرد من وجهة نظر شخصية منها إذا كان السرد مجرد وصف مباشر على لسان المؤلف نفسه .

(5) النوع الثاني من المؤثرات التي تؤدي إلى ارتفاع قيمة (ن ف ص) أو انخفاضها هو ما سماه المؤلف بمؤثرات المضمون . ومن أهم هذه المؤثرات :

ا . العمر : إن نسبة (ن ف ص) في الطفولة والشباب هي عالية وتتجه إلى الانخفاض في الكهولة .
ب . الجنس : تميل نسبة (ن ف ص) إلى الارتفاع عند النساء في مقابل ميل واضح إلى انخفاضها عند الرجال .

(6) وحسب رأي المؤلف فإن الارتفاع والانخفاض في قيمة (ن ف ص) هو نسبي وليس مطلقا . وهذا الارتفاع والانخفاض النسبي مرتبط بعدد من المؤثرات التي عالجناها من قبل . وهذه المؤثرات سواء أكانت مؤثرات صياغة أو مؤثرات مضمون تمارس تأثيرها على قيمة (ن ف ص) في اتجاهات مختلفة ، فبعضها ينحو بها نحو الارتفاع وبعضها ينحو بها نحو الانخفاض . وقد تجتمع في

النص الواحد مؤثرات من نوع واحد أي تعمل في اتجاه واحد إما نحو الارتفاع وإما نحو الانخفاض . كما قد نجد في أحيان أخرى بعض النصوص مشتملا على مؤثرات تعمل في اتجاهات متعارضة بحيث يكون الأثر المتوقع لبعضها رفع قيمة (ن ف ص) ، والأثر المتوقع لبعضها الآخر هو خفض قيمة (ن ف ص) . وتكون النتيجة إما أن يضعف بعضها بعضا أو أن يلغي أحد الاتجاهين أثر الاتجاه المضاد ، كما قد يؤدي ذلك إلى تحييد دلالة (ن ف ص) في بعض الأحيان .

6 . أمثلة تطبيقية من الأساليب النثرية

يطبق المؤلف هنا معادلة بوزيمان على ثلاثة كتب أدبية وفكرية وهي : «مستقبل الثقافة في مصر» لطه جسين ، و «الأيام» أيضا لطه حسين ثم كتاب «حياة قلم» لعباس محمود العقاد .

وهو من خلال هذاالتطبيق يعقد مقارنة بين أسلوب «مستقبل الثقافة في مصر» وبين أسلوب «الأيام» ويتوصل إلا أن نسبة (ن ف ص) في الكتاب الأول (مستقبل الثقافة) هي (0 و 2) أما في الكتاب الثاني (الأيام) فهي (6 و 4) .

ويبرر المؤلف لهذه النتيجة بأن التوقعات من السيرة الذاتية باعتبارها جنسا أدبيا قوامه القص والسرد الشخصي والحديث عن الذكريات والمواقف المؤثرة على الكاتب ــ أن تتميز باتجاه (ن ف ص) فيها نحو الارتفاع (6 و 4) في مقابل النصوص التي يكتبها الكاتب ليعالج بها قضية علمية أو اجتماعية . فعلى حين ينتمي «الأيام» إلى فن السيرة الذاتية يتناول الكتاب الثاني اراء طه حسين في نظام التعليم ، وطرق إصلاحه في مصر وتحديد الانتماء الثقافي لها .

وبعد ذلك يعقد المؤلف مقارنة بين كتاب «حياة قلم» لعباس محمود العقاد وبين كتاب «الأيام» لطه حسين . وقد وجد المؤلف أن حساب (ن ف ص) في الكتابين يؤدي إلى فروق ذات دلالة :

أولها : أن أسلوب «الأيام» أقرب إلى الطابع الأدبي والانفعالي على حين يبدو الطابع الذهني العقلاني أكثر ظهورا في أسلوب «حياة قلم» .

ثانيها : تنوع الموضوع عند طه حسين في «الأيام» أثر على قيمة (ن ف ص) فرفعها في حين أن عدم تنوع الموضوع عند العقاد في «حياة قلم» أضعف قيمة (ن ف ص) .

ثالثها : أن أسلوب العقاد في كتابته أسلوب كتابي خالص ، أما أسلوب طه حسين فيقع وسطا ما بين أسلوب الحديث وأسلوب الكتابة . إذ أن أسلوب الحديث يرفع من قيمة (ن ف ص) . حتى أن العقاد نفسه التفت إلى هذه الخاصية عند طه حسين فقال عنه «إنه يكتب ولا ينسى أنه يتحدث ، ويتحدث ولا ينسى أنه يكتب» .

وقد اختار المؤلف أيضا بعض النماذج من لغة الصحافة المعاصرة لحساب قيمة (ن ف ص) . ومن هذه النماذج : جريدة «الندوة» السعودية وجريدة «الشرق الأوسط» .

وقد استنتج أن نسبة (ن ف ص) هي نسبة منخفضة في الأسلوب الصحفي إذا ما قورنت بالأسلوب الأدبي .

7 . الأسلوب في المسرحية

(1)يكتسب استخدام مقاييس بوزيمان في تشخيص أسلوب المسرحية حسب رأي المؤلف أهمية خاصة ، وذلك لما تتميز به المسرحية من تعقد من حيث اللغة المستخدمة فيها ، ونماذج الشخصيات وتنوع الحوادث والحوار .

وهنا تبرز فرضيتان : أولاهما أن الكلام المنطوق يمتاز بارتفاع قيمة (ن ف ص) في مقابل انخفاضها في الكلام المكتوب .

وثانيتهما أن النصوص الشعرية تمتاز بارتفاع قيمة (ن ف ص) في مقابل النصوص النثرية .

وإزاء هاتين الفرضيتين تبرز قضيتان هامتان عند دراسة الأسلوب في المسرحية حول طبيعة هذا الأسلوب من حيث ارتفاع قيمة (ن ف ص) أو انخفاضها ، ذلك أن المسرحية تكتب لينطق بها الممثلون على المسرح وإذن فهل تكون طبيعة الأسلوب فيها أقرب إلى الكلام المكتوب أم إلى الكلام المنطوق؟

أما القضية الثانية فتطرح المشكلة نفسها ولكن بالمقارنة بين المسرحية الشعرية والمسرحية النثرية في الأدب العربي ، ذلك أننا إذا افترضنا أن المسرحية النثرية أكثر قربا من الكلام العادي فإن معنى ذلك أن تسجل (ن ف ص) في المسرحية النثرية قيمة أعلى من قيمتها في المسرحية الشعرية . أما إذا نظرنا إلى المشكلة من زاوية التمييز بين الشعر والنثر فإن النتيجة ستكون عكس ما ذكرنا تماما ، أي أن قيمة (ن ف ص) في المسرحية الشعرية ستكون أعلى من قيمتها في المسرحية النثرية بسبب ما تتميز به النصوص الشعرية من خاصية ارتفاع قيمة (ن ف ص) فيها بالنسبة للنصوص النثرية .

(2) وفي محاولة لاستخدام المقياس (ن ف ص) لتحليل الأساليب في المسرحيات العربية قام المؤلف بإحصاء شامل لقيمة (ن ف ص) في مسرحيات أحمد شوقي . وقد خرج بنتائج حساب قيمة (ن ف ص) في كل مسرحية من المسرحيات التالية :

ـــ مصرع كليوباترا : ن ف ص = 6 و 7
ـــ مجنون ليلى : ن ف ص = 8 و 7
ـــ الست هدى : ن ف ص = 9 و 10
ـــ أميرة الأندلس : ن ف ص = 0 و 5

وقد استنتج المؤلف من هذه الأرقام نتائج عدة ذات دلالة تدعم استخدام العملية الاحصائية بشكل عام ومعادلة بوزيمان بشكل خاص في تحليل الأساليب في الأنواع الأدبية كافة .

8 . الأسلوب في الرواية

(1) الرواية من أهم الأجناس الأدبية وأحدثها تاريخا في أدبنا العربي وهي بحكم كونها بنية فنية معقدة تتيح للدراسة الأسلوبية مجالا من أخصب مجالات التطبيق وتتعدد مداخل دراسة الرواية بنيويا وأسلوبيا . لذلك حاول المؤلف هنا معالجة لغة الرواية من المنظور الاحصائي الأسلوبي متناولا على وجه التحديد كيفية استخدام دلالة (ن ف ص) على تشخيص أساليب الرواية وتحديد نوع العلاقة التي تربط بين الكاتب وشخصيات روايته ، وقياس الأبعاد الدرامية لهذه الشخصيات .

(2) وفي محاولته للافادة من مقاييس بوزيمان في دراسة الرواية العربية اختار المؤلف للمقارنة نموذجين من كتاب الرواية لا يكاد يشك قارىء أو ناقد في تباينهما تباينا كبيرا سواء في الاتجاه أو الأسلوب أو فنية البناء الروائي وهما محمد عبد الحليم عبد الله في روايته «بعد الغروب» . ونجيب محفوظ في روايته «ميرامار» .

وقد استنتج المؤلف من المقارنة أن الحوار في رواية «ميرامار» حوار طبيعي أي من النوع المسرحي المركز وليس كذلك الحوار في رواية «بعد الغروب» . ويستنتج المؤلف أيضا أن أسلوب نجيب محفوظ أكثر اتساقا مع المعايير المميزة للغة السرد من لغة الحوار .

إن إتقان نجيب محفوظ وبصره بالأساليب قد انعكس واضحا في المقياس الذي استخدمه المؤلف

على هيئة انتظام في العلاقة بين السرد والحوار وأن اختلاط اللأسلوبين عند محمد عبد الحليم عبد الله انعكس واضحا أيضا في اضطراب هذه العلاقة .

ويعتبر المؤلف أن استخدامه لمعادلة بوزيمان في تشخيص أسلوب نجيب محفوظ قد بين سرا من أسرار عظمة الكتابة التي يكتبها هذا الرجل .

9 . النتيجة التي توصل إليها المؤلف

إن الفكرة الأساسية التي قام عليها كتاب «الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية» كما يذكر المؤلف هي استخدام النسبة بين الصفات والأفعال في النصوص مؤشرا إحصائيا يتم على أساسه تشخيص الأساليب وسير العلاقة بين الكاتب وأبطال عمله المسرحي أو الروائي ، وقياس البعد الدرامي للشخصية .

ويحاول المؤلف هنا إيجاز المجالات المتعددة التي يمكن أن تستخدم في علاجها المعادلة التي تعرف بمعادلة بوزيمان وهذه هي :

أولا : في اللسانيات النفسية

(1) قياس درجة الانفعال .
(2) قياس درجة التوازن العاطفي .
(3) قياس الحركية .
(4) قياس دقة التعبير ودرجة موضوعيته .

ثانيا : بالنسبة للمؤلف

(1) يمكن تمييز شخصية المؤلف حين يتحدث عن نفسه حديثا مباشرا .
(2) يمكن تمييز جنس المؤلف (من حيث الذكورة والأنوثة) .
(3) يمكن تحديد مراحل عمر المؤلف من الشباب إلى الكهولة إلى الشيخوخة .

ثالثا : بالنسبة للأعمال الأدبية

(1) يمكن تمييز الأعمال العلمية من الأعمال الأدبية .
(2) يمكن تمييز الشعرية من النثرية .
(3) يمكن تمييز اللغة المنطوقة من المكتوبة .
(4) يمكن تمييز نصوص الفصحى من اللهجات .
(5) يمكن تمييز الحكايات الشعبية من القصص والروايات معروفة المؤلف .
(6) يمكن تمييز المسرحيات كجنس أدبي على أساس علاقتها باللغة المنطوقة أو المكتوبة وبنوعية اللغة المستخدمة فيها فصحى أو لهجات .
(7) يمكن تمييز فنون الشعر المختلفة .
(8) يمكن تمييز أساليب وطرق العرض في المسرحية والرواية مثل :
ا . المونولوج (كلام الفرد) .
ب . الديالوج (الحوار) .
ج . السرد والوصف .
د . الأحاديث الطويلة .
هـ . الأحاديث القصيرة .
و . الشخصيات في المسرحية أو الرواية .
ز . درامية الموقف .
ح . ربط تغير قيمة (ن ف ص) بالتطور الدرامي في المسرحية أو الرواية .

ويتم تفسير هذه العوامل على أساس تصنيفها إلى :

(1) عوامل تنزع بقيمة (ن ف ص) نحو الارتفاع .
(2) عوامل تنزع بقيمة (ن ف ص) نحو الانخفاض .
(3) وقد يتفق للعمل الأدبي أن تجتمع فيه بعض المؤثرات التي تعمل في اتجاه واحد (سواء نحو الارتفاع أو الانخفاض) .

وقد تجتمع فيه مؤثرات متضاربة ، وتكون المحصلة هي نتاج عمل هذه المؤثرات باتجاهاتها المختلفة .

10 . نقد الكتاب وتحليله

لاشك في أن كل دراسة منهجية لظاهرة من الظواهر الانسانية أو الطبيعية لابد أن تثمر عن نتائج معينة سواء أكانت هذه النتائج إيجابية أم سلبية أم إيجابية وسلبية في الوقت نفسه . ويبدو لي أن معطيات النتائج إنما تتحدد بمعطيات المنهج من ناحية وبكيفية استخدام هذا المنهج من ناحية أخرى . ونعني بكيفية استخدام المنهج الأدوات المستخدمة في عملية التحليل كالتفكير العلمي والعملية التحليلية نفسها ، أضف إلى ذلك بناء الفرضيات والنظريات القائمة على وصف الظاهرة المدروسة .

من هنا سأعالج الكتاب من خلال بعدين اثنين الأول : البعد المنهجي والثاني البعد البراغماتي النفعي . على أنني لن أتوقف كثيرا عند البعد الأول والوسائل التقنية المستعملة فيه ذلك لأنه مهما اختلفت هذه الوسائل التحليلية فلن تؤثر على تقييم العمل لأنه كما يقال العبرة في النتائج . وهكذا فإن نقد الكتاب وتحليله سيعالجان الجوانب الايجابية والجوانب السلبية للمنهج وللنتائج التي توصل إليها المؤلف .

ا . الجوانب الايجابية

تميز الكتاب بسمات إيجابية عدة يمكن أن نجملها بما يلي :

(1) إن إثارة موضوع «الأسلوبيات» ولفت انتباه القارىء العربي لهذا الموضوع الجديد في حقل الثقافة العربية المعاصرة تعد عملا رائدا في هذا المجال ، ذلك لأن الذين بحثوا في هذا الموضوع قلائل جدا في الوطن العربي[2] فالدكتور سعد مصلوح تناول الأسلوبيات من ثلاثة أبعاد رئيسية تصف كل علم من العلوم الانسانية والطبيعية بها وهي حد الأسلوبيات (أي تعريف ماهيتها) والموضوعات التي تتناولها ثم الأهداف التي تسعى إلى تحقيقها وبهذا فقد قدم خدمة جلى للقارىء العربي الذي لم يألف مثل هذه الدراسات العلمية الدقيقة للأساليب الأدبية واللغوية والاجتماعية .

وقد كانت المعلومات التي قدمها الباحث جديدة وطازجة وذلك بسبب ثقافته العربية التأثيلية الأصيلة ثم لغته الأجنبية التي فتحت الأبواب أمامه لينهل من هذا العلم الجديد مادة ومنهجا . وهكذا فقد جاءت هذه المعلومات الأسلوبية (العربية و الأجنبية) في إطار واضح وسهل وممتع لا لبس فيه ولا غموض .

(2) إن هذه المعلومات الأسلوبية العربية والأجنبية (القديمة منها و المعاصرة) تقودنا إلى صفة ثانية تمتع بها الباحث الدكتور سعد مصلوح وهي الجمع بين الثقافة العربية التراثية المتعلقة بالدراسات الأسلوبية وبين الثقافة الغربية المعاصرة التي طورت الدراسات الأسلوبية بحيث أصبحت علما قائما بنفسه له قوانينه ومبادئه ونظرياته ومناهجه .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على خاصة مهمة لفكر الباحث وهي أنه أراد لكتابه أن يتميز بسمتين اثنين هما سمة التنظير وسمة التطبيق . أما عن السمة التنظيرية الأولى فقد استطاع المؤلف أن يقدم للقارىء العربي المبادىء والقوانين الهامة في الأسلوبيات وأن يعقد في الوقت نفسه مقارنة بينها وبين تلك المبادىء والقوانين البلاغية والنقدية التي أتى بها العرب القدامى ، كلما احتاج السياق إلى ذلك . فعلى سبيل المثال لا الحصر يعقد المقارنة التالية (ص 27) :

«ونحب أن نقرر هنا وجود وشائج قوية بين مفهوم الأسلوب عند ريفاتير ونظرية التخييل الشعري التي استنبطها الفلاسفة المسلمون من شرحهم لكتاب الشعر الأرسطي ووصلت ذروة

نضجها عند البلاغي العربي أبي الحسن حازم القرطاجني صاحب «منهاج البلغاء وسراج الأدباء» ... » .

أما ما يتعلق بالسمة التطبيقية الثانية فإن المؤلف حاول أن يستفيد من التنظير القديم والحديث ويطبقه على نماذج نثرية من الأدب العربي ، لذلك نراه يتناول كتابي طه حسين «مستقبل الثقافة في مصر» و «الأيام» بأجزائه الثلاثة ليعقد مقارنة أسلوبية حديثة بين هذين الكتابين من جهة وبين كتاب آخر لعباس محمود العقاد هو «حياة قلم» .

لقد كانت المقارنة علمية وموضوعية إذ استخدم المؤلف بشأنها معادلة بوزيمان الاحصائية التي تستطيع أن تبين مدى أدبية الأسلوب ومدى علميته في الوقت نفسه ، أما النتائج التي توصل إليها المؤلف فتبقى ممتعة ورائعة لها دلالاتها النفسية والفكرية والاجتماعية . أضف إلى ذلك أنه استخدم هذا المعيار الاحصائي في مجال الرواية والمسرحية . ففي المجال المسرحي درس المؤلف أربع مسرحيات لأحمد شوقي هي :

مصرع كليوباترا ــ مجنون ليلى ــ الست هدى ــ أميرة الأندلس .

وقد خلص المؤلف من خلال دراسته لهذه المسرحيات إلى نتائج مهمة تدعم استخدام العملية الاحصائية في تحليل الأساليب الأدبية .

أما في مجال الرواية فقد عقد المؤلف مقارنة طريفة بين روايتين هما «بعد الغروب» لمحمد عبد الحليم عبد الله و «ميرامار» لنجيب محفوظ .

وقد خرج المؤلف بنتائج مهمة تتعلق بالحوار والمونولوج والسرد والوصف والشعرية والنثرية التي تسم الروايتين المذكورتين .

المهم في هذا الموضوع هو العلاقة الرائعة التي عقدها المؤلف بين النظرية الأسلوبية (القديمة والمعاصرة) وبين تطبيقاتها على الأنواع الأدبية النثرية والمسرحية والروائية . وهذا مؤشر إيجابي على صحة المنهج الذي اتبعه المؤلف والذي يدل على صحة النتائج التي توصل إليها (إلى حد ما) .

(3) استفاد المؤلف (إلى حد ما وليس الاستفادة كلها) من بعض الأدوات المنهجية الموجودة في علوم مختلفة كاللسانيات وعلم الاحصاء وعلم النفس وعلم الاجتماع لاستخدامها في دراسة الأساليب . من هذه الأدوات مثلا :

البنية السطحية والبنية العميقة ــ الأداء اللغوي والمقدرة اللغوية ــ الكلام واللغة ــ الجغرافية اللغوية ــ الدراسة السنكرونية والدراسة الدياكرونية ــ معادلة بوزيمان الاحصائية ــ المضامين النفسية للكاتب والنص والمتلقي ــ المضامين الاجتماعية للغة أفرادا وجماعات .

وهكذا فإن المنهج الأسلوبي الذي انطلق منه المؤلف لدراسة الظواهر الأسلوبية للنصوص كان منهجا متماسكا استطاع التوصل إلى بعض النتائج المهمة على الصعيد اللغوي والاحصائي والنفسي والاجتماعي وحتى الفلسفي إلى حد ما .

(4) هناك سمة علمية إيجابية مهمة تميز بها فكر المؤلف هي سمة الانفتاح والنقاش والنسبية في الحقائق . فالنتائج التي توصل إليها المؤلف كانت ذات صفة نسبية مفتوحة وليست ذات صفة دوغمائية مغلقة .

والواقع إن هذه السمة العلمية هي سمة العلم المعاصر الذي يتطلع إلى الكشف الدائب من خلال الاجتهاد المفتوح . من هنا فإننا نجد أن المؤلف حين يطرح قضية ما فإنه يتناولها بهذا الشكل (ص 18) :

«ترى هل نعني بذلك أن علم الأسلوب هو البديل الموضوعي للنقد الأدبي؟ وجوابنا أن ذلك قد يكون وقد لا يكون ، فهو من مسائل الخلاف ... لكننا نحسب أن من الأمور التي ينبغي أن تكون موضع اتفاق لقربها من بداهة العقل أن التفسير والتقويم تاليان للوصف والتحليل ، وعمل الأسلوب هو المرجو لأداء مهمة الوصف والتحليل على خير وجه ممكن ... » .

وهكذا فإن أغلب الحقائق التي استنتجها المؤلف من خلال دراسته هي حقائق قابلة للتحقق والامتحان والاجتهاد المستمر . من هنا فقد امتاز المؤلف بصفة الباحث العلمي التجريبي .

(5) وأخيرا ينبغي أن ننظر إلى هذه الدراسة التي وردت في الكتاب على أنها جزء لا يتجزأ من سلسلة يسعى المؤلف لتحقيقها في الدراسات الأسلوبية . فقد تميز هذا الكتاب بأنه أولى ثمار هذه السلسلة لذلك نراه يقول بهذا الشأن (ص 8) :

«ومن ثم استعنت الله سبحانه في وضع مكتبة أرجو أن تكون متكاملة في قضايا التحليل الأسلوبي ومناهجه ، ومشكلاته النظرية والتطبيقية ويمثل هذا الكتاب أولى ثمارها» .

من هنا ينبغي علينا أن نتطلع إلى النتائج التي خلص إليها المؤلف على أنها نتائج خاضعة للفحص والتدقيق والتجريب ومن ثم التطوير ، تلك النتائج التي تؤدي إلى رؤية دقيقة لبنية النصوص الأدبية صوتا ونحوا ودلالة . ذلك لأن هدف المؤلف وضع هذا النموذج الأسلوبي أمام دارس الأدب للاطلاع على الأفكار الواردة فيه من أجل تطوير النقد الأدبي المعاصر ووضع عجلته إلى الأمام ليكون علما منضبطا قائما برأسه .

ب . الجوانب السلبية

إذا كانت الأفكار التي وردت في هذا الكتاب خاضعة للدرس والتحقيق والاجتهاد من أجل تطوير الدراسات الأسلوبية والنقدية معا فإنني لا أجد حرجا من الاشارة إلى بعض السلبيات التي وسمت الكتاب والتي يمكن إجمالها بما يلي :

(1) أولى هذه السلبيات هي عدم الثبوتية والانسجام (consistency) في تطبيق المنهج على الأنواع الأدبية كافة . فبعد أن رسم الباحث خطوط المنهج الأسلوبي نراه يطبقه على بعض النصوص النثرية والأدبية المسرحية منها والروائية . ولكنه لم يطبقه على النصوص الشعرية . وبما أننا اعتبرنا الأسلوبيات علما يدرس جميع أنماط الأساليب الأدبية وغير الأدبية ، أي جميع الاستعمالات اللغوية الخاضعة للشرط الاجتماعي المتغير والمتلون فإنه كان من الأفضل من حيث المنهج والمادة أن يختار المؤلف بعض النصوص الشعرية وبعض النصوص المتعلقة بالاستعمالات اللغوية الخارجة عن نطاق الأدب بأنواعه المختلفة وذلك لكي يتحقق من صحة المنهج الأسلوبي الجديد الذي وضعه .

والواقع إن الكتاب لا يكتمل منهجا ومادة إلا بدراسة هذه النصوص الشعرية واللغوية لكي يكون العمل وافيا وكافيا وشاملا . ذلك لأن أهم صفة في أي منهج علمي منضبط هي الشمولية التي هي نتيجة لذلك الانتقال من الجزئيات إلى الكليات لكي يأخذ التطبيق صفة الشرعية والعالمية .

(2) بما أن الأسلوبيات تستخدم معايير موضوعية عديدة من أجل أن تطبقها على تحليل النصوص فإن المؤلف لم يستخدم إلا معيارا واحدا من هذه المعايير هو معيار الاحصاء . والواقع هناك معايير كثيرة بالاضافة إلى معيار الاحصاء يمكن

للأسلوبيات استخدامها من أجل دراسة النصوص كمعيار التواصلية اللغوية التي تبحث في المرسِل والمرسَل إليه والقناة الموصلة والمدونة أو النص والوضع ثم التوضيع .

وهناك المعيار النفسي الذي يبحث في الانفصام أو الاندماج مع النص والتعاطف مع النص والموقف النفسي لمنشىء النص ومتذوقه ، ثم الظروف النفسية التي تمخض عنها النص وما إلى ذلك من المفاهيم النفسية المفيدة جدا في كشف قناع المعنى عن النص المدروس .

أضف إلى ذلك أن هناك معايير اجتماعية وأنثروبولوجية ودينية مهمة جدا في كشف المعنى وهتك حجابه سواء على صعيد المؤلف أم المتلقي أم السياق الذي انتج النص .

إن الفكرة الرئيسية هنا هي أن المؤلف لم يستخدم معايير موضوعية عديدة (لا نظريا ولا تطبيقيا) لدراسة النصوص دراسة أسلوبية . وهذا يقودنا إلى التساؤل حول النتائج التي توصل إليها المؤلف من خلال استخدامه معيارا واحدا هو معيار الاحصاء . ذلك لأنه لا يمكننا التيقن من مدى صحة هذه النتائج ودقتها إلا باستخدام هذه المعايير الموضوعية الآنفة الذكر .

إن معيار الاحصاء لاشك في أنه قد يأتي ببعض الحقائق الأسلوبية حول بنية النص ووظيفته ولكنه لا يستطيع أن يأتي بكل الحقائق التي تدور حول المؤلف والمتلقي والسياق النفسي والاجتماعي والأنثروبولوجي ... إلخ . إن أية دراسة تريد لنفسها الضبط العلمي لابد أن تستخدم جميع المعايير الموضوعية التي يمكنها أن تكشف لنا بنية النصوص المدروسة شكلا ووظيفة .

(3) وهذا يقودنا للقول أن الباحث لم يستفد من النتائج المذهلة التي حققتها اللسانيات الاجتماعية في العقدين الماضيين كالفروق القائمة بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة والفروق القائمة بين لغة النساء ولغة الرجال والجانب الحضاري والاجتماعي للغة ... إلخ .

صحيح أن المؤلف تحدث عن الجغرافية اللغوية التي تمكن الأسلوبيات من كشف الأساليب الاجتماعية من خلال خطوط التوزيع المختلفة إلا أن هذا لا يكفي لاستخلاص بنية النصوص ووظائفها الاجتماعية ، فاللسانيات الاجتماعية قطعت شوطا كبيرا في دراسة الأشكال اللغوية ووظائفها الاجتماعية والحضارية . فالمدرسة التواصلية مثلا اكتشفت أن العملية الايصالية تحتاج إلى ثلاثة أنماط لصياغة المعنى وفرزه في النص . هذه الأنماط هي التالية(3) :

ا . أنماط الترميز وتشمل :

(1) القواعد الصرفية والنحوية .
(2) الأصوات .
(3) تنغيم الكلام .
(4) نوعية الصوت البشري .
(5) ما يرافق ذلك من العناصر الحركية (كالايماءات وقسمات الوجه وحركة العينين) .
(6) ما يرافق ذلك من العناصر المكانية (طريقة وقوف الشخصيات المتحاورة أو جلوسهم مقابل بعضهم بعضا) .

ب . أنماط التأطير وتشمل الاستراتيجيات المختلفة في المجتمع وينطوي عنها :

(1) كمية الكلام .
(2) طريقة استهلال الحوار .
(3) تطوير الحوار .
(4) إنهاء الحوار .

(5) تبادل الأدوار فيه .
(6) كيفية معالجة موضوع البحث وتنظيمه .
(7) الأمور الروتينية .
(8) الكليشيهات .
(9) الطقوس المختلفة المتبعة في مجتمع من المجتمعات .

ج . أنماط السياق والمقام وتشمل :

(1) مسرح التفاعل اللغوي .
(2) مكانه .
(3) زمانه .
(4) موضوع الحوار .
(5) الشخصيات المشاركة في الحوار وعلاقة بعضها ببعض من النواحي الاجتماعية .
(6) الخلفية الحضارية الاجتماعية والخلفيات الأخرى للشخصيات . وهكذا فإن هذه الأنماط التواصلية يمكنها أن تكشف لنا حركية التواصل بين منشىء النص والعمليات التواصلية الجارية في النص ثم متلقي النص أو متذوقه . فإذا استطاع الباحث كشف المعنى من خلال هذه الأنماط فإنه يستطيع بعدها تحديد المستوى النفسي للنص والمستوى الشخصي للكاتب ثم المستوى النوعي للمتذوق .

والحقيقة هناك نتائج كثيرة توصلت إليها اللسانيات الاجتماعية يمكن أن تفيد الأسلوبيات في تحليل النصوص كان ينبغي على الباحث ذكرها أو لفت الانتباه إليها لكي تكون دراسته أكثر دقة وضبطا وموضوعية .

(4) والباحث لم يستفد أيضا من معيار مهم جدا في اللسانيات البراغماتية النفعية (الذريعية) وهو معيار الشكل والوظيفة . ونعني بالشكل أصوات الجملة وكلماتها وترتيبها ، أما الوظيفة فنعني بها المعنى الذي تفرزه هذه الجملة . فإذا اعتبرنا الجمل الخبرية والاستفهامية والأمرية أشكالا فليس من المحتم أن تعطينا هذه الأشكال خبرا أو استفهاما أو أمرا .

فكثيرا ما نجد أن شكل الجملة يختلف عن وظيفتها . فسؤال المدرس للطالب «لماذا نسيت القيام بواجبك المنزلي يا علي؟» ليس سؤالا على الرغم من شكله ، بل هو تأنيب للطالب على كسله . وإذا دخل الأستاذ قاعة المحاضرات وشعر أن الهواء مكتوم فيها ورغب في أن يفتح أحد الطلاب النافذة أو مكيف الهواء فربما قال «الغرفة مخنوقة الهواء» وإذا أحد الشباب يفهم أن الجملة نوع من الطلب فيبادر إلى فتح النافذة أو تشغيل مكيف الهواء رغم أن الجملة خبرية من حيث الشكل[4] .

والحقيقة إن استخدام معيار الشكل والوظيفة في تحليل النصوص يساعد الأسلوبيات على تحديد بنية النص ووظائفه اللغوية والاجتماعية ثم تحديد العملية التواصلية بشكل منسجم ومنضبط .

(5) آخر النقاط السلبية في الكتاب أن الباحث لم يستفد من علمين حديثين ومهمين جدا في حقل الأسلوبيات وهما علم الدلاليات (Semantics) وعلم السيميائيات (Semiotics) . فقد تطور هذان العلمان تطورا مدهشا في السنوات القليلة الماضية ولا سيما من خلال احتكاكهما بالدراسات الأدبية والنقدية . فعلم الدلاليات طرح مفاهيم دلالية جد مهمة إذا ما استثمرت في الأسلوبيات فإن الباحث سيتوصل إلى نتائج مدهشة حول حركية النصوص من الوجهة الدلالية .

من المفاهيم التي طرحتها الدلاليات : العلاقة بين الدلالة والاشارة ــ الوظيفة الدلالية التي تبحث في المعنى وآثاره وفي الخلق والتطور الدلالي في النص ــ أشكال تغيرات المعنى وأسباب هذه التغيرات سواء أكانت تغيرات دلالية أم منطقية . أضف إلى

ذلك أن للدلاليات مناهجها في تحليل البنية الدلالية يمكن أن تغني المناهج الأسلوبية وتجعلها أكثر ضبطا . من هذه المناهج : منهج التحليل التوزيعي ـــ منهج التحليل المفهومي ـــ منهج التحليل الاشتقاقي ـــ منهج التحليل الاحصائي وغيرها من المناهج الدلالية المفيدة .

وليس هنا مجال للتحدث عن علم الدلاليات ذلك لأنه علم متشعب ومتعدد الوجوه ، والكتب المؤلفة حوله كثيرة يمكن الرجوع إليها لمعرفة مدى تطور هذا العلم وأثره على الأدب والنقد والأسلوبيات(5) .

أما علم السيميائيات فقد شهد أيضا تطورا ملحوظا ولا سيما في أوربا والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة . يبحث هذا العلم في بنية الاشارة وأنواعها ومصادرها ووظائفها في الكون . وبما أن اللغة إشارة صوتية وكتابية فإنها تدخل ضمن الموضوعات التي يبحثها هذا العلم . إن استثمار المفاهيم السيميائية في حقل الأسلوبيات سيضيء لنا مناطق غامضة في النصوص الأدبية وغير الأدبية .

من هذه المفاهيم السيميائية المطروحة مثلا : شكل الاشارة وجوهرها ـــ أنماط الاشارة وتأويلاتها ـــ الشيفرات المنطقية للاشارة (كالتغيرات الايمائية والشيفرات المعرفية والغيبية ... إلخ) ـــ الشيفرات الجمالية للاشارة (كالشيفرات الفنية والأدبية) ـــ الشيفرات الاجتماعية المتعارف عليها بين جماعة معينة ذات ثقافة معينة .

ومجمل القول إن السيميائيات استطاعت أن تكشف لنا بنية الدلالة الخارجة عن نطاق اللغة والتي يمكن أن تساعد اللغة على الايصال والتوصيل .

وكثيرة هي الكتب التي تناولت هذا العلم وبحثته تعريفا وموضوعا وغاية يمكن للقارىء الرجوع إليها في أماكنها(6) . والواقع لو التفت الباحث الدكتور سعد مصلوح إلى هذين المعيارين المتطورين لكانت نتائجه أكثر دقة وضبطا وموضوعية .

الهوامش

(1) الدكتور سعد مصلوح أستاذ بكلية دار العلوم ـــ جامعة القاهرة . يقوم الآن بتدريس علم اللغة والأسلوب في معهد الخرطوم الدولي لتعليم اللغة العربية التابع لجامعة الدول العربية .

(2) يمكننا أن نذكر في هذا المجال الأعمال الرائدة للدراسات الأسلوبية الحديثة من حيث النظرية والتطبيق . من هذه الأعمال :
ا . المسدي ، د . عبد السلام (1977) ***الأسلوبية والأسلوب : نحو بديل ألسني في نقد الأدب*** . الدار العربية للكتاب ـــ تونس .
ب . عياد ، د . شكري (1980) «مفهوم الأسلوب بين التراث النقدي ومحاولات التجديد» ***فصول*** ، مج 1 ع 1 القاهرة .
ج . الراجحي ، د . عبده (1981) «علم اللغة والنقد الأدبي : علم الأسلوب» ***فصول*** مج 1 ع 2 . القاهرة .
د . عزت ، علي (1971) «علم الأسلوبيات ومشاكل التحليل اللغوي» ***الفكر المعاصر*** . ع 80 ـــ القاهرة .
هـ . الطرابلسي ، محمد الهادي (1978) «في منهجية الدراسة الأسلوبية» . ضمن ***اللسانيات واللغة العربية*** . مركز الدراسات ، تونس .

(3) خرما ، د . نايف وحجاج ، د . علي (1988 ص 125 ـــ 126) ***اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها*** . عالم المعرفة . الكويت .
الجدير ذكره هنا أن هذا المرجع اعتمد في هذا التصنيف على تصنيف عالم اللسانيات الاجتماعي لفداي . لمزيد من التفصيل انظر :
Loveday, L (1982 : P 63). *The sociolinguistics of learning and using a non-native language*. Oxford : Pergamon press.

(4) المرجع نفسه (ص 125 ـــ 126) .

(5) لمعرفة المزيد حول الدلاليات انظر :
بيير جيرو (1988) ***علم الدلالة*** . ترجمه إلى العربية د . منذر عياشي . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . دمشق .

(6) لمعرفة المزيد حول السيميائيات انظر :
بيير جيرو (1988) ***علم الاشارة – السيميولوجيا*** . ترجمه إلى العربية د . منذر عياشي . دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر . دمشق .

الخلاصة

يعتبر كتاب «الأسلوب : دراسة لغوية إحصائية» من أهم الكتب التي بحثت في الأسلوبيات على مستوى النظرية والتطبيق . وينبغي علينا أن نعترف أن كل جديد لا بد أن تعترضه بعض العقبات مادة ومنهجا . ولكن الحقيقة التي لا مجال للشك فيها هي أن هذا الجديد لابد من التطوير ، ولا يمكن أن يتم هذا إلا من خلال احتكاك النظرية بالواقع . وبما أن الأسلوبيات تعتبر نظرية قائمة بذاتها فلا بد من تطبيقها على النصوص العربية (الأدبية وغير الأدبية) وذلك لامتحانها ومعرفة مواطن قوتها وضعفها ، ذلك لأن المشكلات التي تحيط بالأسلوبيات في الغرب هي مختلفة من حيث الشكل والجوهر عن المشكلات التي تحيط بها في الثقافة العربية المعاصرة .

وما هذه الدراسة التي قدمها الدكتور سعد مصلوح إلا محاولة لجعل النظرية الأسلوبية تحتك بالواقع العربي (اللغوي والأدبي) من أجل اكتشاف أفضل وأنجع لبنية النص العربي .

بهذا المفهوم وحده يمكن أن نعد هذه الدراسة الأسلوبية لبنة من لبنات الثقافة الأسلوبية الحديثة التي نتطلع إليها في المستقبل .

حول معاني حروف المعاني وأصول استعمالها

حسن عباس

الحلقة الأولى

حول صعوبة التعامل مع حروف المعاني .

لقد درج علماء اللغة العربية وفقهاؤها القدامى منهم والمحدثون على تقنين استعمال حروف المعاني من (جر وعطف وجزم ونصب وغيرها .) وفق ما ورد في تراثنا اللغوي من الشعر العربي الأصيل ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والنصوص الأدبية ، والمعاجم اللغوية ، وكتب الصرف والنحو وما إليها ...

ويتشدد بعض النقاد في تحديد طريقة استعمال كل حرف منها ، بأن تجري وفق ما شاع استعماله بغض النظر عن جدواها في تأدية المعنى الدقيق الذي يرمي إليه الكاتب .

وهكذا إذا كان المعنى المراد مستحدثا أو غير شائع ، فإن استعمال الحرف وفق ما شاع ، قد يحيد بالكاتب عن غرضه ، أو يوقعه صراحة في الخطأ .

ونظرا لكثرة حروف المعاني في اللغة العربية وتنوع استعمال كل واحد منها لشتى الأغراض (حزنت له / الكتاب له) ، فإنه ليس ثمة ما هو أخطر على فصحى الكاتب العربي من مسألة استعمال هذه الحروف بمعرض التعبير عن معانيه .

كما أن تعامل أكثر من حرف مع فعل واحد (حزنت له / حزنت عليه) ، للتعبير عن أكثر من غرض ، يزيد المسألة صعوبة . وقالوا : ((مات الفراء وفي قلبه شيء من حتى)) .

وتتجلى أهمية حروف المعاني وخطورة استعمالها ، في كونها هي الأدوات الثقافية الدقيقة التي يسبر الكاتب العربي بها أعماق نفسه ويلاحق بها تلونات أفكاره ، ليستخرج منهما معانيه خالصة من كل شائبة على وضوح وبلاغة ورشاقة وشفافية فجاءت تسميتها حروف المعاني موافقة لمهامها ووظائفها . وقصة (واو) اللوزينج في عبارة (لا ، وأيدك الله) ما هي إلا واحدة من آلاف الأمثلة .

وإذا كان من الجائز تشبيه حروف المعاني في اللغة العربية بالأدوات الجراحية الدقيقة المعاصرة يسبر

الجراح بها أعضاء البدن ، فيستخلص العلل من مكامنها .

فإن معاناة الكاتب العربي مع حروف المعاني هي أشد من معاناة الطبيب مع الأدوات الجراحية . ذا يتعامل مع بعضها مما يتعلق باختصاصه ، وذاك يتعامل مع واحد وثلاثين نوعا من حروف المعاني .

وشبابنا ممن يتعاطون الكتابة لشتى الأغراض الأدبية والعلمية والصحفية وما إليها ، أين هم اليوم من تراثنا اللغوي ؟

إنهم لم يحفظوا آلاف الأبيات من الشعر العربي الأصيل ، جاهلية وغير جاهليّة عن ظهر قلب ، ولا عشرات السور القرآنية ، ولا الكثير من النثر الأدبي ، ولا كتب الصرف والنحو ، كما كان يفعل جيل العشرينيات أو الثلاثينيات من مثقفي هذا القرن .

ولذلك فإنه لمن المتعذر عليهم إن لم يكن مستحيلا ، أن يستعملوا حروف المعاني جميعاً في وجوهها الصحيحة ولو استعملوها على وجه ما شاع استعماله . فما كل ما شاع استعماله يصلح للتعبير عن معان لم يشع استعمالها ، أو لم يسبق تداولها .

ما السبيل إلى ترويض حروف المعاني ؟

إنه لامخرج للكاتب العربي من هذا الحصار التراثي ، إلا أن يستهدي بخصائص الحروف العربية ومعانيها بمعرض استعمال حروف المعاني تعبيرا عن حاجاته ومعانيه . وبذلك نعود إلى أصول التراث .

فاللغة العربية تتفرد عن سائر اللغات الحية المعاصرة ، بأن لكل حرف من حروفها معاني محددة تتوافق بصورة عامة مع خصائصه .

وهذه الخصائص ، إما أن تكون ايمائية تمثيلية تتأتى من طريقة التلفظ بصوت الحرف ، وإما أن تكون إيحائية تتأتى من صدى صوته في النفس .

وهذا الاختلاف في خصائص هاتين الفئتين من الحروف العربية (حروف المباني) ، يعود أصلا إلى الاختلاف في المستوى الحضاري للمراحل التي أبدعت خلالها كل فئة منهما .

فطريقة التعبير عن المعاني في دنيا التواصل إيماء وتمثيلا بالحركات الجسمية (يد .. رأس . فك . أسنان . فم ..) ، إنما هي أكثر بدائية وتخلفا ، وبالتالي أقل تطوراً ورقياً من التعبير عنهما بصدى أصوات الحروف في النفس . وهذا يقطع بأن مرحلة إبداع أصوات الحروف الايمائية التمثيلية هي أعرق في القدم من مرحلة إبداع أصوات الحروف الايحائية .

الجذور الغابية والزراعية والرعوية في الحروف العربية :

لقد تبين لي في دراسة متعمقة عن (الشخصية العربية والحرف العربي) أن الانسان العربي قد أبدع حروفه عبر ثلاث مراحل .

ففي المرحلة الغابية التي امتدت منذ بداية العصر الجليدي الأخير حتى الألف (12) ق.م ، قد بقي لنا يقينا مما أبدعه الانسان العربي خلالها من وسائل التواصل مع أبناء جنسه أصول الحروف الجوفية الثلاثة (الألف والواو والياء) .

وفي المرحلة الزراعية التي امتدت منذ الألف (12 حتى الألف 9) ق.م أبدعت المرأة زعيمة المرحلة الزراعية الحروف الايمائية ، وقد بقي لنا منها يقينا أصول حروف (ف. م. ل. ذ. ث) واحتمالا حرفا (ش. خ).

أما في المرحلة الرعوية التي امتدت منذ الألف (9) ق.م حتى العصور الجاهلية الأولى ، فقد أبدع الرجل زعيم المرحلة الرعوية ، الحروف الايحائية. كان